الفصل الثالث

العجائب في خلق الإنسان

دعوة إلى التفكر في النفس:

من مظاهر قدرة الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان، وقد ندب سبحانه إلى التفكر فيه والنظر في غير موضع من كتابه كقوله تعالى: ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴾ [الطارق: ٥]. وقوله تعالى: ﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات: ٢١]. وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ﴾ [الحج: ٥].

قال تعالى: ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ [القيامة: ٣٦-٤٠].

قال تعالى: ﴿ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴾ [المرسلات: ٢٠-٢٣]. وقال: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾ [يس: ٧٧]. وقال: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ [المؤمنون: ١٢-١٤].

وهذا كثير في القرآن يدعو العبد النظر والفكر في مبدأ خلقه ووسطه إذ نفسه وخلقه من أعظم الدلائل على خالقه وفاطره وأقرب شيء إلى الإنسان نفسه وفيه من

العجائب الدالة على عظمة الله ما تنقضي الأعمار في الوقوف على بعضه وهو غافل عنه معرض عن التفكر فيه، ولو فكر في نفسه لزجره ما يعلم من عجائب خلقها عن كفره، قال الله تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ﴾ [عبس: ١٧-٢٢]. فلم يكرر سبحانه على أسماعنا وعقولنا ذكر هذا لنسمع ذكر النطفة والعلقة والمضغة والتراب ولا لنتكلم بها فقط ولا لمجرد تعريفنا بذلك؛ بل لأمر وراء ذلك كله هو المقصود بالخطاب وإليه جري ذلك الحديث[١].

الآيات في الأنفس:

قال تعالى: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١]. لما كان أقرب الأشياء إلى الإنسان نفسه دعاه خالقه وبارئه ومصوره وفاطره من قطرة ماء[٢] إلى التبصر والتفكر في نفسه، فإذا تفكر الإنسان في نفسه؛ استنارت له آيات الربوبية، وسطعت له أنوار اليقين، واضمحلت عنه غمرات الشك والريب، وانقشعت عنه ظلمات الجهل، فإنه إذا نظر في نفسه وجد آثار التدبير فيه قائمات، وأدلة التوحيد على ربه فيه ناطقات، شاهدات لمدبره دالة عليه، مرشدة إليه؛ إذ يجده مكونًا من قطرة ماء: لحومًا منضدة وعظامًا مركبة، وأوصالًا متعددة مأسورة مشدودة بحبالها العروق والأعصاب قد قُمِّطَتْ[٣] وَشُدَّت، وجمعت بجلد متين مشتمل على ثلاث مائة وستين مفصلًا ما بين كبير وصغير، وثخين ودقيق، ومستطيل ومستدير، ومستقيم ومنحنٍ، وشدت هذه الأوصال بثلاث مائة وستين عرقًا للاتصال والانفصال، والقبض والبسط، والمد والضم، والصنايع والكتابة.

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ٢٩١-٢٩٢).

(٢) كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ [المرسلات: ٢٠].

(٣) قمط الشيء شده برباط [المعجم الوجيز ٥١٥].

وجعل فيه تسعة أبواب: فبابان للسمع، وبابان للبصر، وباب للشم، وباب للكلام والطعام والشراب والتنفس، وبابان لخروج الفضلات التي يؤذيه احتباسها وجعل بابي السمع مَرًّا قائلًا لئلا تلج دابة فيها تخلص إلى الدماغ فتؤذيه، وجعل بابى البصر مالحًا؛ لئلا تذيب الحرارة الدائمة ما هناك من الشحم، وجعل داخل باب الطعام والشراب حلو ليسيغ به ما يأكله ويشربه فلا ينغص به لو كان مُرًا أو مالحًا.

وجعل له مصباحين من نور كالسراج المضيئ مركبين في أعلى مكانه منه وفي أشرف عضو من أعضائه كطليعة له، وركب هذا النور في جزءٍ صغيرًا جدًا يبصر به السماء والأرض وما بينهما، وغَشَّاه[١] بسبع طبقات وثلاث رطوبات بعضها فوق بعض، حماية وصيانة وحراسة، وجعل على محله غلقًا بمصراعين أعلى وأسفل وركب في ذيل المصراعين أهدابًا من الشعر[٢] وقاية للعين وزينة وجمالًا وفوق ذلك كله حاجبين من الشعر يحجبان العين من العرق النازل، ويتلقيان عنها ما ينصب من هناك، وجعل سبحانه لكل طبقة من طبقات العين شغلًا مخصوصًا، ولكل واحد من الرطوبات مقدارًا مخصوصًا لو زاد على ذلك أو نقص منه لاختلت المنافع والمصالح المطلوبة، وجعل هذا النور الباهر في قدر عدسة، ثم أظهر في تلك العدسة صورة السماء والأرض، والشمس والقمر والنجوم والجبال، والعالم العلوي والسفلي مع اتساع أطرافه، وتباعد أقطاره، واقتضت حكمته سبحانه أن جعل فيها بياضًا وسوادًا، وجعل القوة الباصرة في السواد، وجعل البياض مستقرًا لها ومستكنًا، وزيَّن كلًا منها بالآخره، وجعل الحدقة مصونة بالأجفان والحواجب كما تقدم، والأجفان بالأهداب، وجعلها سوداء إذ لو كانت بيضاء لتفرق النور الباهر فضعف الإدراك؛ فإن السواد

(١) غشاه: «أي غطاه».

(٢) الأهداب: هي شعر الجفون والتي تعرف بالرموش.

يجمع البصر، ويمنع من تفرق الباصر، وخلق سبحانه لتحريك الحدقة وتقليبها أربعًا وعشرون عضلة لو نقصت عضلة واحدة؛ لاختل أمر العين.

ولما كانت العين كالمرآة التي إنما تنطبع فيها الصور إذا كانت غاية الصقالة والصفاء فجعل سبحانه هذه الأجفان متحركة جدًا بالطبع إلا الانطباق من غير تكلف هذه المرآة نقية صافية من جميع الكدورات، ولهذا لما لم يخلق لعين الذبابة أجفانًا فإنك لا تزال تراها تنظف عينها بيدها من آثار الغبار والكدورات[١].

نظرة إلى النطفة بعين البصيرة[٢]:

انظر الآن إلى النطفة بعين البصيرة وهي قطرة من ماء مهين ضعيف مستقذر- لو مرت بها ساعة من الزمان فسدت وأنتنت- كيف استخرجها رب الأرباب العليم القدير من بين الصلب والترائب منقادة لقدرته، مطيعة لمشيئته، مذلة القياد إلى ضيق طريقها واختلاف مجاريها إلى أن ساقها إلى مستقرها ومجمعها ؛ جمع سبحانه بين الذكر والأنثى وألقى المحبة بينهما، وكيف قادهما بسلسلة الشهوة والمحبة إلى الاجتماع الذي هو سبب تخليق الولد وتكوينه، وكيف قدر اجتماع ذينك الماءين مع بعد كل منهما عن صاحبه وساقهما من أعماق العروق والأعضاء، وجمعها في موضع واحد جُعِلَ لهما قرارًا مكينًا لا يناله هواء يفسده ولا برد يجمده ولا عارض يصل إليه، ولا آفة تتسلط عليه ثم قلب تلك النطفة البيضاء المشرقة علقة حمراء تضرب إلى سواد ثم جعلها مضغة لحم مخالفة للعلقة في لونها وحقيقتها وشكلها، ثم جعلها عظامًا مجردة لا كسوة عليها، مباينة للمضغة في شكلها وهيئتها وقدرها وملمسها ولونها.

---

(١) التبيان في أقسام القرآن [٢١٥-٢٥٤] ط التوفقية.

(٢) تنبه حدث تكرار يسير في بعض المواضع ولعل ذلك يكون من باب ما تكرر تقرر.

وانظر كيف قسم تلك الأجزاء المتشابهة المتساوية إلى الأعصاب والعظام والعروق والأوتار واليابس واللين وبين ذلك، ثم كيف ربط بعضها ببعض بأقوى رباط وأشده وأبعده عن الانحلال، وكيف كساها لحمًا ركبه عليها وجعله وعاء لها وغشاء وحافظًا وجعلها حاملة له مقيمة له، فاللحم قائم بها وهي محفوظة به، وكيف صورها فأحسن صورها وشق لها السمع والبصر والفم والأنف وسائر المنافذ ومدَّ اليدين والرجلين وبسطهما، وقسم رؤوسهما بالأصابع ثم قسمها بالأنامل. وركب الأعضاء الباطنة من القلب والمعدة والكبد والطحال والرئة والرحم والمثانة والأمعاء كل واحد منها له قدر يخصه ومنفعة تخصه[1].

فارجع الآن إلى النطفة وتأمل حالها أولًا وما صارت إليه ثانيًا وأنه لو اجتمع الإنس والجن على أن يخلقوا لها سمعًا أو بصر أو عقلًا أو علمًا أو روحًا؛ بل عظمًا واحدًا من أصغر عظامها، بل عرقًا من أدق عروقها، بل شعرة واحدة لعجزوا عن ذلك، بل ذلك كله آثار صنع الله الذي أتقن كل شيء في قطرة من ماء مهين.

فمن هذا صنعه في قطرة ماء؛ فكيف في ملكوت السماوات، وعلوها وسعتها واستدارتها وعظيم خلقها، وحسن بنائها وعجائب شمسها وقمرها وكواكبها ومقاديرها وأشكالها وتفاوت مشارقها ومغاربها، فلا ذرة فيها تنفك عن حكمة، بل هي أحكم خلقًا وأتقن صنعًا وأجمع للعجائب من بدن الإنسان، بل لا نسبة لجميع ما في الأرض إلى عجائب السماوات قال تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا﴾[النازعات: ٢٨].

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ٢٩٢-٢٩٣).

كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلۡمُسَخَّرِ بَيۡنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴾ [البقرة: ١٦٤].

فبدأ بذكر خلق السماوات وقال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾[آل عمران: ١٩٠].

وهذا كثير في القرآن فالأرض والبحار والهواء وكل ما تحت السماوات- بالإضافة إلى السماوات كقطرة في بحر، ولهذا قل أن تجئ سورة في القرآن إلا إقسامًا بها، وإما دعاء إلى النظر فيها، وإما إرشادًا للعباد أن يستدلوا بها على عظمة بانيها ورافعها، وإما استدلالًا منه سبحانه وتعالى بخلقها على ما أخبر به من المعاد والقيامة، وإما استدلالًا منه بربوبيته لها على وحدانيته وأنه الله الذي لا إله إلا هو، وإما استدلالًا منه بحسنها واستوائها والتئام أجزائها وعدم الفطور فيها على تمام حكمته وقدرته[١].

الآيات في العين:

كما جعل سبحانه العينين مؤديتين للقلب ما يريانه، فيوصلان إليه كما ترياه، جعلهما مرآتين للقلب يظهر فيهما ما هو مودع فيه من الحب والبغض، والخير والشر، والبلادة والفطنة، والزيغ والاستقامة، فيستدل بأحوال العين على أحوال القلب وهو أحد أنواع الفراسة الثلاثة: وهي فراسة العين، وفراسة الأذن، وفراسة القلب، فالعين مرآة القلب، وطليعة ورسول، ومن عجيب أمرها أنها من ألطف الأعضاء،وأبعدها تأثرًا بالحر والبرد، على أن الأذن على صلابتها وغلظها لتتأثر بهما أكثر من تأثر العين على لطافتها، وليس ذلك بسبب الغطاء الذي عليها من الأجفان؛ فإنها لو كانت متفتحة لم تتأثر بذلك تأثر الأعضاء اللطيفة[٢].

---

(١) «مفتاح دار السعادة»(١/ ٣٠٣-٣٠٤).

(٢) «التبيان في أقسام القرآن» [٢٥٤-٢٥٥].

فانظر كيف حسن شكل العينين وهيئتهما ومقدارها ثم جعلهما بالأجفان غطاء لهما وسترًا وحفظًا وزينة فهما يتلقيان عن العين الأذى والقذا والغبار، ويكناهما[١] من البارد المؤذي والحار المؤذي ثم غرس في أطراف تلك الأجفان الأهداب جمالًا وزينة، ولمنافع أخر وراء الجمال والزينة. ثم أودعها ذلك النور الباصر والضوء الباهر الذي يخرق ما بين السماء والأرض ثم يخرق السماء مجاوزًا لرؤيته ما فوقها من الكواكب وقد أودع سبحانه هذا السر العجيب في هذا المقدار الصغير بحيث تنطبع فيه صورة السماوات مع اتساع أكنافها وتباعد أقطارها.

عجائب العين:

ثم أنزل إلى العين وتأمل عجائبها وشكلها وخلقها وإيداع النور الباصر فيها، وتركيبها من عشر طبقات وثلاث رطوبات، ولكل واحد من هذه الطبقات والرطوبات شكل مخصوص ومقدار مخصوص، لو لم يكن عليه لاختلت المصلحة المقصودة وجعل سبحانه موضع الإبصار في قدر العدسة، ثم أظهر في تلك العدسة قدر السماء والأرض، والجبال والبحار، والشمس والقمر، فانظر كيف اتسعت تلك العدسة أن يرتسم فيها ما لا نسبة لها إليه ألبتة؟ وجعل تلك القوة الباصرة في جزء أسود، فتأمل كيف قام الباصر بهذا الجزء الأسود؟

وجعل سبحانه الحدقة مصونة بالأجفان، لتسترها وتحفظها وتصقلها، وتدفع الأقذاء عنها وجعل شعر الأجفان أسود ليكون سواده سببًا لاجتماع النور الذي به الإبصار ويكون مانعًا من تفرقه، ويكون أبلغ في الحسن والجمال.

وخلق سبحانه لتحرك الحدقة أربعة وعشرين عضلة، لو نقصت واحدة منهن لاختل أمر العين.

---

(١) يكناهما: أي يحفظاهما.

ولما كانت العين شبيهة بالمرآة - التي إنما ينتفع بها إذا كانت في غاية الصقالة والصفاء - جعل سبحانه الأجفان متحركة إلى الانفتاح والإطباق أبدًا باختيار الإنسان وغير اختياره لتبقى الحدقة نقية صافية عن جميع الكدورات، وجعل العينين بمنزلة المرآتين الصقيليتين اللتين تنطبع فيهما صور الأشياء الخارجة، فيتأثر القلب ثم يظهر ما فيه عليهما فيتأثران به فهما مرآة لما في القلب يظهر فيهما، ومرآة لما في الخارج تنطبع صورته فيهما، فالعينان على القلب كالزجاجتين الموضوعتين في المرآة ولذلك يستدل بأحوال العين على أحوال القلب من رضاه، وغضبه وحبه، وبغضه، ونفرته، ومن أعجب الأشياء أن العين من ألطف أعضاء البدن، وهي لا تتأثر بالحر والبرد تأثر غيرها من الأعضاء الكثيفة، ولو كان الأمر عائدًا إلى مجرد الطبيعة لكان ينبغي أن يكون الأمر بالعكس لأن الألطف أسرع تأثرًا، فعلم أن حصول هذه المصالح ليس هو بمجرد الطبع[١].

حال فاقد البصر وما يقع في أموره من الخلل:

ثم تأمل حال من عدم البصر وما يناله من الخلل في أموره، فإنه لا يعرف موضع قدمه ولا يبصر ما بين يديه ولا يفرق بين الألوان والمناظر الحسنة من القبيحة ولا يتمكن من استفادة علم من كتاب يقرأه ولا يتهيأ له الاعتبار والنظر في عجائب ملك الله هذا مع إنه لا يشعر بكثير من مصالحه ومضاره فلا يشعر بحفرة يهوى فيها ولا بحيوان يقصده كالسبع فيتحرز له ولا بعدو يهوى نحوه ليقتله ولا يتمكن من هرب إن طلب، بل هو ملق السلم لمن رامه بأذى ولولا حفظ خاص من الله له قريب من حفظ الوليد وكلاءته لكان عطبه أقرب من سلامته فإنه بمنزلة لحم على وضم[٢] ولذلك جعل الله ثوابه إذا صبر واحتسب الجنة[٣].

---

(١) «التبيان في أقسام القرآن» [٣٣٩-٣٤٠].

(٢) الوضم: ما يضع عليه الجزار اللحم من خشب ونحوه، ويطلق عليها عند العوام «أُرمة».

(٣) كما ثبت عند البخاري من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إن الله عز وجل قال: إذا ابتليت عبدي بحبيبتيه فصبر عوضته منهما من الجنة» [رواه البخاري برقم ٥٦٥٣] وحبيبتيه: أي عينيه.

ومن كمال لطفه أن عكس نور بصره إلى بصيرته فهو أقوى الناس بصيرة وحدسًا وجمع عليه همه، فقلبه مجموع عليه غير مشتت ليهنأ له العيش وتتم مصلحته ولا يظن أنه مغموم حزين متأسف، هذا حكم من ولد أعمى، فأما من أصيب بعينيه بعد البصر فهو بمنزلة سائر أهل البلاء المنتقلين من العافية إلى البلية فالمحنة عليه شديدة لأنه قد حيل بينه وبين ما ألفه من المرائي والصور ووجوه الانتفاع ببصره فهذا له حكم آخر.

وكذلك من عدم السمع فإنه يفقد روح المخاطبة، والمحاورة ويعدم لذة المذاكرة ونغمة الأصوات الشجية وتعظم المؤنة على الناس في خطابه ويتبرمون به ولا يسمع شيئًا من أخبار الناس وأحاديثهم فهو بينهم شاهد كغائب وحي كميت وقريب كبعيد.

وقد اختلف النظار في أيهما أقرب إلى الكمال وأقل اختلالًا لأموره الضرير أو الأطرش، وذكروا في ذلك وجوهًا وهذا مبني على أصل آخر وهو أي الصفتين أكمل صفة السمع أو صفة البصر، وقد ذكرنا الخلاف فيهما فيما تقدم من هذا الكتاب وذكرنا أقوال الناس وأدلتهم والتحقيق في ذلك، فأي الصفتين كانت أكمل فالضرر بعدمها أقوى.

والذي يليق بهذا الموضع أن يقال عادم البصر أشدهما ضررًا وأسلمهما دينًا وأحمدهما عاقبة وعادم السمع أقلهما ضررًا في دنياه وأجهلهما بدينه وأسوأ عاقبة فإنه إذا عدم السمع عدم المواعظ والنصائح وانسدت عليه أبواب العلوم النافعة وانفتحت له طرق الشهوات التي يدركها البصر ولا يناله من العلم ما يكفه عنها، فضرره في دينه أكثر وضرر الأعمى في دنياه أكثر ولهذا لم يكن في الصحابة أطرش وكان فيهم جماعة أضراء[1] وقل أن يبتلى الله أولياءه بالطرش ويبتلي كثيرًا منهم بالعمى.

---

(١) منهم ابن أم مكتوم وعتبان بن مالك، وممن أصيب بالعمى في آخر عمره ابن عباس وجابر بن عبد الله بن أبي وقاص رضي الله عنهم.

فهذا فصل الخطاب في هذه المسألة فمضرة الطرش في الدين ومضرة العمى في الدنيا والمعافى من عافاه الله منهما ومتعه بسمعه وبصره وجعلهما الوارثين منه[١].

لماذا جعل ماء العين مالحًا؟

جعل ماء العين مالحًا ليحفظها؛ فإنها شحمة قابلة للفساد، فكانت ملوحة مائها صيانة لها وحفظًا، وجعل ماء الفم عذبًا جليدًا؛ ليدرك به طعوم الأشياء على ماهي عليه إذ لو كان على غير هذه الصفة لأحالها إلى طبيعته، كما أن من عرض لفمه المرارة استمر طعم الأشياء التي ليست بمرة كما قيل:

وَمَنْ يَكُ ذَا فَمٍ مُرٍّ مَرِيضٍ ... يَجِدْ مُرًّا بِهِ الْمَاءَ الزُّلَالا[٢]

الآيات في الأذنين:

ومن ذلك الأذنان، شقهما تبارك وتعالى في جانبي الوجه، وأودعهما من الرطوبة ما يكون معينًا على إدراك السمع وأودعها القوة السمعية، وجعل سبحانه في هذه الصدفة انحرافات واعوجاجات لتطول المسافة قليلًا فلا يصل الهواء إلا بعد انكسار حدته، فلا يصدمها وهلة واحدة فيؤذيها، وأيضًا لئلا يفجأها الداخل إليها من الدبيب والحشرات، بل إذا دخل إلى عوجة من تلك الانعطافات وقف هناك فسهل إخراجه.

وكانت العينان في وسط الوجه والأذنان في جانبيه؛ لأن العينين محل الملاحة والزينة والجمال، وهما بمنزلة النور الذي يمشي بين يدي الإنسان، وأما الأذنان فكان جعلهما في الجانبين؛ لكون إدراكها لما خلف الإنسان وأمامه وعن يمينه وعن شماله سواء، فتأتي المسموعات إليها على نسبة واحدة، وخلقت العينان بغطاء والأذنان بغير غطاء

---

(١) إشارة إلى قول رسول الله ﷺ: «ومتعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا واجعله الوارث منا» رواه الترمذي برقم [٣٥٠٢]، وحسنه الألباني في صحيح الجامع برقم [١٢٦٨].

(٢) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٢٩٤)

وهذا في غاية الحكمة؛ إذ لو كان للأذنين غطاء لمنع الغطاء إدراك الصوت فلا يحصل إلا بعد ارتفاع الغطاء، والصوت عرض لا ثبات له، فكان يزول قبل كشف الغطاء، بخلاف ما تراه العين، فإنه أجسام وأعراض لا تزول فيما بين كشف الغطاء وفتح العين، وجعل سبحانه الأذن عضوًا غضروفيًا ليس بلحم مسترخ، ولا عظم صلب،بل هو بين الصلابة واللين، فتقبل بلينها، وتحفظ بصلابتها، ولا تنصدع انصداع العظام، ولا تتأثر بالحر والبرد، والشمس والسموم تأثير اللحم إذ المصلحة في بروزها لتلقي ما يردُ عليها من الأصوات والأخبار[1] وخلق الأذن أحسن خلقه وأبلغها في حصول المقصود منها، فجعلها مجوفة كالصدفة لتجميع الصوت فتؤديه إلى الصماخ، وليحس بدبيب الحيوان فيها فيبادر إلى إخراجه وجعل فيها عضونًا وتجاويف واعوجاجات تمسك الهواء والصوت الداخل فتكسر حدته ثم تؤديه إلى الصماخ. ومن حكمة ذلك أن يطول به الطريق على الحيوان فلا يصل إلى الصماخ حتى يستيقظ أو ينتبه لإمساكه. وفيه أيضًا حكم غير ذلك[2].

عجائب الأذن:

ثم اعدل إلى الأذنين، وتأمل شقهما، وخلقهما وإيداع الرطوبة فيهما؛ ليكونا عونًا على إدراك السمع وجعلها مرة لتمتنع الهوام عن الدخول في الأذن وحَّوطهما سبحانه بصدفتين يجمعان الصوت ويؤديانه إلى الصماخ، وجعل في الصدفتين تعريجات، لتطول المسافة فتنكسر حدة الصوت و لا تلج الهوام دفعة، بل تكثر حركاتها فينتبه لها فيخرجها وجعل العينين مقدمتين والأذنين مؤخرتين لأن العينين بمنزلة الطليعة والكاشف والرائد، الذي يتقدم القوم ليكشف لهم، وبمنزلة السراج الذي يضيء للسالك ما أمامه، وأما الأذنان فيدركان المعاني الغائبة التي ترد على العبد من أمامه ومن خلفه وعن جانبيه، فكان جعلهما في الجانبين أعدل الأمور، فسبحان من بهرت حكمته العقول!.

(١) «التبيان في أقسام القرآن» [٢٥٥-٢٥٦].

(٢) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٢٩٤).

وجعل للعينين غطاء، لأن مدرك الأذن الأصوات، ولا بقاء لها، فلو جعل عليهما غطاء لزال الصوت قبل ارتفاع الغطاء فزالت المنفعة المقصودة، وأما مدرَك العين فأمر ثابت والعين محتاجة إلى غطاء يقيها، وحصول الغطاء لا يؤثر في الإدراك، وقال بعض أهل العلم: عينا الإنسان هاديان، وأذناه رسولان إلى قلبه، ولسانه ترجمان، ويداه جناحان، ورجلاه بريدان والقلب ملك، فإذا طاب الملك طابت جنوده وإذا خبث خبثت جنوده[1].

الحكمة في خلق الأنف:

ومن ذلك الأنف نصبه سبحانه في وسط الوجه قائمًا معتدلًا في أحسن شكل وأوفقه للمنفعة، وأودعه حاسة الشم، التي يدرك بها الروائح وأنواعها وكيفياتها ومنافعها ومضارها، ويستدل بها على مضار الأغذية والأدوية ومنافعها. وأيضًا فإنه يستنشق بالمنخرين الهواء البارد الرطب، فيؤديه إلى القلب، فيتروح به فيستغني بذلك عن فتح الفم أبدًا، وجعل تجويفه بقدر الحاجة فلم يوسعه عن ذلك، فيدخله هواء كثير ولم يضيقه فلا يدخلها من الهواء ما يكفيه، وجعل ذلك التجويف مستطيلًا؛ لينحصر فيه الهواء، وينكسر برده وحدته قبل أن يصل إلى الدماغ، فلولا ذلك لصدمه بحدته وقوته.

والهواء الذي يستنشقه الأنف ينقسم شطرين: شطرًا يصعد إلى الدماغ، وشطرًا ينزل إلى الرئة، وهو من آلات النطق فإن له إعانة على تقطيع الحروف، وكما أن تجويفه جعل لاستنشاق الهواء،جعل مصبًا لفضلات الدماغ تنحدر فيه القصبة، فيخرج، فيسترجع الدماغ، ولذلك جعل سترًا، ولم يجعلها بارزة، فتستقبحها، وجعل فيها تجويفًا فإنه قد يفسد أحدهما أو يعرض له آفة تمنعه من الإدراك والاستنشاق، فيبقى التجويف الثاني نائبًا عنه يعمل عمله كما اقتضت الحكمة مثل ذلك في العينين.

---

(١) «التبيان في أقسام القرآن» [٣٤١].

ثم تأمل الهواء الذي يستنشقه الأنف، كيف يدخله أولًا من المنخرين وينكسر برده هناك، ثم يصل إلى الحلق، فيعتدل مزاجه هناك، ثم يصل إلى الرئة ألطف مما يكون، ثم تبعثها الرئة إلى القلب فيروح عن الحرارة الغريزية التي فيه، ثم ينفذ من القلب إلى العروق المتحركة[1] ويبلغ إلى أقاصي أطراف البدن، ثم إذا سخن في الباطن وخرج عن حد الانتفاع خرج من تلك الأقاصي إلى البدن، ثم إلى الرئه، ثم إلى الحلقوم ثم إلى المنخرين خارجًا فيخرج منها ويعود عوضه هواء بارد نافع، والنفس الواحد من أنفاس العبد إنما يتم بمجموع هذه الأمور والقوى والأفعال، وهو له في اليوم والليلة أربعة وعشرون ألف نفس، لله في كل نفس عدة نِعَمٍ، قد وقفت على القليل منها، فما ظنك بما وراء النفس من الأعضاء والقوي ومنافعها وتمام النعمة بها؟[2] ثم لم يجعل في داخله من الاعوجاجات والغضون ما جعل في الأذن؛ لئلا يمسك الرائحة فيضعفها ويقطع مجراها وجعلها سبحانه مصبًا تنحدر إليه فضلات الدماغ فيتجمع فيه ثم تخرج منه. واقتضت حكمته أن جعل أعلاه أدق من أسفله لأن أسفله كان واسعًا اجتمعت فيه تلك الفضلات فخرج بسهولة، ولأنه يأخذ من الهواء ملأه ثم يتصاعد في مجراه قليلًا حتى يصل إلى القلب وصولًا لا يضره ولا يزعجه ثم فصل بين المنخرين بحاجز بينهما حكمة منه ورحمة؛ فإنه لما كان قصبة مجرى ساترًا لما ينحدر فيه من فضلات الرأس ومجرى التنفس الصاعد منه جعله في وسطه حاجزًا؛ لئلا يفسد بما يجري فيه فيمنع نشقه للتنفس، بل إما أن يعتمد الفضلات نازلة من أحد المنفذين في الغالب فيبقى الآخر للنفس، وإما أن يجري فيهما فينقسم فلا يفسد الأنف جملة، بل يبقى فيه مدخل للتنفس.

---

(١) يقصد بذلك الأكسجين الذي يسري في الدم ثم يخرج بعد ذلك على هيئة ثاني أكسيد الكربون.

(٢) «التبيان» [٢٥٦-٢٥٧].

وأيضًا فإنه لما كان عضوًا واحدًا وحاسة واحدة، ولم يكن عضوين وحاستين كالأذنين والعينين اللتين اقتضت الحكمة تعددهما فإنه ربما أصيبت إحداهما أو عرضت لها آفة تمنعها من كمالها فتكون الأخرى سالمة فلا تتعطل منفعة هذا الجنس جملة وكان وجود أنفين في الوجه شيئًا ظاهرًا فنصب فيه أنفًا واحدًا وجعل فيه منفذين حجز بينهما بحاجز يجري تعدد العينين والأذنين في المنفعة وهو واحد فتبارك الله رب العالمين وأحسن الخالقين.

العجائب والحكم في خلق الفم:

وشق سبحانه للعبد الفم في أحسن موضع وأليقه به من المنافع وآلات الذوق والكلام وآلات الطحن والقطع ما يبهر العقول عجائبه، فأودعه اللسان الذي هو أحد آياته الدالة عليه، وجعله ترجمانًا لملك الأعضاء مبينًا مؤديًا عنه، كما جعل الأذن رسولًا مؤديًا مبلغًا إليه، فهي رسوله وبريده الذي يؤدي الأخبار، واللسان بريده ورسوله الذي يؤدي إليه عنه ما يريد.

واقتضت حكمته سبحاته أن جعل هذا الرسول مصونًا محفوظًا مستورًا غير بارز مكشوف كالأذن والعين والأنف لأن تلك الأعضاء لما كانت تؤدي من الخارج إليه رجعت بارزة ظاهرة ولما كان اللسان مؤديًا عنه إلى الخارج جعل له سترًا مصونًا لعدم الفائدة في إبرازه؛ لأنه لا يأخذ من الخارج إلى القلب، وأيضًا فلأنه لما كان أشرف الأعضاء بعد القلب ومنزلته منه منزلة ترجمانه ووزيره ضرب عليه سرادق تستره وتصونه وجعل في ذلك السرادق كالقلب في الصدور.

وأيضًا فإنه ألطف الأعضاء وألينها وأشدها رطوبة وهو لا يتصرف إلا بواسطة الرطوبة المحيطة به فلو كان بارزًا صار عرضة للحرارة واليبوسة والنشاف[1] المانع له من التصرف ولغير ذلك من الحكم والفوائد[2].

(١) «النشاف» هو الجفون.

(٢) مفتاح دار السعادة (١/ ٢٩٥-٢٩٦).

وأودع اللسان من المنافع منفعة الكلام- وهي أعظمها- ومنفعة الذوق والإدراك وجعله دليلًا على اعتدال مزاج القلب وانحرافه، كما جعله دليلًا على استقامته واعوجاجه، فترى الطبيب يستدل بما يبدو للبصر على اللسان من الخشونة، والملاسة والبياض، والحمرة والتشقق وغيره، على حال القلب والمزاج وهو دليل قوي على أحوال المعدة والأمعاء كما يستدل السامع بما يبدو عليه من الكلام على ما في القلب فيبدو عليه صحة القلب وفساده معني وصورة.

فصل:

وجعل سبحانه اللسان عضوًا لحميًا، لا عظم فيه ولا عصب، لتسهل حركته، ولهذا لا تجد في الأعضاء من لا يكترث بكثرة الحركة سواه، فإن أي عضو من الأعضاء إذا حركته كما تحرك اللسان لما يطق ذلك، ولم يلبث أن يكل ويخلد إلى السكون إلا اللسان، وأيضًا فإنه من أعدل الأعضاء وألطفها، وهو في الأعضاء بمنزلة رسول الملك ونائبه، فمزاجه[1] من أعدل أمزجة البدن، ويحتاج إلى قبض وبسط، وحركة في أقاصي الفم وجوانبه، فلو كان فيه عظام لم يتهيأ منه ذلك، ولم يتهيأ منه الكلام التام ولا الذوق التام فكونه الله كما اقتضاه السبب الفاعلي والغائي والله أعلم.

فصل:

وجعل سبحان على اللسان غلقتين: أحدهما الأسنان والثاني الفم، وجعل حركته اختيارية، وجعل على العين غطاء واحدًا، ولم يجعل على الأذن غطاء، وبذلك لخطر اللسان وشرفه وخطر حركاته، وكونه في الفم بمنزلة القلب في الصدر وذلك من اللطائف فإن آفة الكلام أكثر من آفة النظر، وآفة النظر أكثر من آفة السمع، فجعل للأكثر آفات طبيقين، وللمتوسط طبقًا، وجعل الأقل آفة بلا طبق.

---

(١) مزاجه: أي طبيعته وصفته.

وجعل سبحانه الفم أكثر الأعضاء رطوبة، والريق يتحلل إليه دائمًا لا يفارقه، وجعله حلوًا لا كماء العين، ولامُرًّا كالذي في الأذن ولا عفنًا كالذي في الأنف، بل هو أعزب مياه البدن وأحلاها حكمة بالغة فإن الطعام والشراب يخالطه، بل هو الذي يحيل الطعام ويمتزج به امتزاج العجين بالماء، فلولا أنه حلو لما التذ الإنسان، بل ولا الحيونات بطعام ولا شراب ولا ساغه إلا على كره وتنغيص.

العجائب في خلق الأسنان والشفتين:

ولما كان كثير من الطعام لا يمكن تحويله إلا بعد طحنه؛ جعل الرب تعالى له آلة للتقطيع والتفصيل وآلة للطحن، فجعل آلة القطع- وهي الثنايا وما يليها- حادة الرؤوس؛ ليسهل بها القطع، وجعل النواجذ وما يليها من الأضراس مسطحة الرؤوس؛ عريضة ليتأتي بها الطحن، ونظمها أحسن نظام كاللؤلؤ المنظم في سلك، وجعلها من الجانب الأعلى والأسفل؛ ليتأتى به القطع والطحن، وجعلها من الجانب الأيمن والأيسر، إذ ربما كلَّت إحدى الآلتين، أو تعطلت أو عرض لها عارض، فينتقل إلى الآلة الأخرى، وأيضًا لو كان العمل على جانب واحد دائمًا أو شك أن يتعطل ويضعف.

وتأمل كيف أنبتها سبحانه من نفس اللحم وتخرج من خلاله نابتة كما ينبت الزرع في الأرض، ولم يكسها سبحانه لحمًا كسائر العظام سواها إذ لو كساها اللحم لتعطلت المنفعة المقصودة ولما كانت العظام محتاجة إلى لحم يكسوها ويحفظها، ويتلقى عنها الحرارة والبرد، ويحفظ عليها رطوبتها، لم تكمل مصلحة الحيوان إلا بهذه الكسوة، ولما كانت عظام الأسنان محتاجة إلى ذلك من وجه مسغنية عنه من وجه؛ جعلت كسوتها منفصلة عنها وجعلت هي المكتسية العارية لتمام المنفعة بذلك، ولما كانت آلة القطع والكسر والطحن لم تنشأ مع الطفل من أول نشأته كسائر عظامه لعدم الحاجة إليها عطل عنها وقت استغنائه عنها بالرضاعة، وأعطيها وقت حاجته إليها وفيه حكمة أخرى وهي

أنه لو نشأت معه من حين يولد لأضرت بحلمة الثدي إذ لا عقل له يحرزه عن عضها فكانت الأم تمتنع من إرضاعه.

ومن عجيب أمرها الاتفاق والموالاه بينها وبين المعدة فإنه يسلم إليها الشيء اليابس والصلب فتطحنه ثم تسلمه إلى اللسان فيعجنه ثم اللسان يسلمه إلى الحلق فيوصله إلى المعدة فتنضجه وطبخه، ثم يرسل إليها منه معلومها المقدر لها، فإذا عجزت عن قطع شيء وطحنه عجزت المعدة عن انضاجه وطبخه وإذا كلت الأسنان كلَّت المعدة وإذا ضعفت ضعفت وهي تصحب الإنسان وتخدمه ما لم يرها فإذا وقعت عينه عليها فارقته الأبد وهي سلاح ومنشار، وسكين وروح وزينة وفيها منافع ومصالح غير هذه[1].

زين سبحانه الفم بما فيه من الأسنان التي هي جماله وزينة وبها قوام العبد وغذاؤه، وجعل بعضها أرجاء[2] للطحن، وبعضها آلة للقطع فأحكم أصولها وحدود رؤوسها، وبيض لونها، ورتب صفوفها متساوية الرؤوس متناسقة الترتيب كأنها الدر المنظوم بياضًا وصفاءً وحسنًا.

وأحاط سبحانه على ذلك حائطين وأودعهما من المنافع والحكم ما أودعهما وهما الشفتان فحسن لونها وشكلها ووضعهما وجعلهما غطاء للفم وطبقًا له وجعلهما إتمامًا لمخارج حروف الكلام ونهاية له كما جعل أقصى الحلق بداية له، واللسان وما جاوره وسطًا ولهذا كان أكثر العمل فيها له إذ هو الواسطة واقتضت حكمته أن جعل الشفتين لحمًا صرفًا لا عظم فيه ولا عصب؛ ليتمكن بهما من مصِّ الشراب ويسهل عليه فتحهما

(١) «التبيان في أقسام القرآن» [٢٥٨-٢٦١].

(٢) أرجاء جمع رحي وهي ما يطعن به.

وطبقهما[١]. وخص الفك الأسفل بالتحريك؛ لأن تحريك الأخف أحسن ولأنه يشتمل على الأعضاء الشريفة فلم يخاطر بها في الحركة.

وخلق سبحانه الحناجر مختلفة الأشكال في الضيق والسعة والخشونة والملاسة، والصلابة واللين والطول والقصر فاختلفت بذلك الأصوات أعظم اختلاف ولا يكاد يشتبه صوتان إلا نادرًا[٢] ولهذا كان الصحيح قبول شهادة الأعمي لتمييزه بين الأشخاص بأصواتهم كما يميز البصير بينهم بصورهم والاشتباه العارض بين الأصوات كالاشتباه العارض بين الصدر[٣].

خلق الرأس وكثرة ما فيه من عظام:

وتأمل في خلق الرأس وكثرة ما فيه من العظام حتى قيل: إنها خمسة وخمسون عظمًا مختلفة الأشكال والمقادير والمنافع، وكيف ركبه سبحانه وتعالى على البدن وجعله عاليًا علو الراكب على مركوبه، ولما كان عاليًا على البدن جعل فيه الحواس الخمس، وآلات الإدراك من السمع والبصر والشم والذوق واللمس، وجعل حاسة البصر في مقدمه؛ ليكون كالطليعة والحرس والكاشف للبدن وركب كل عين من سبع طبقات لكل طبقة وصف مخصوص ومقدار مخصوص ومنفعة مخصوصة، لو فقدت طبقة من تلك الطبقات السبع أو زالت عن هيئتها وموضعها؛ لتعطلت العين عن الإبصار، ثم أركز سبحانه داخل تلك الطبقات السبع خلقًا عجيبًا، وهو إنسان العين بقدر العدسة[٤] يبصر به ما بين المشرق والمغرب والأرض والسماء، وجعله من العين بمنزلة القلب من الأعضاء

---

(١) «طبقها»: أي ضمها.

(٢) بل إنه لا يشتبه صوتان في العالم إذ يوجد الآن بصمة الصوت، بل وبصمة العين.

(٣) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٢٩٦-٢٩٧).

(٤) أي حبة العدس بل هو أقل.

فهو ملكها وتلك الطبقات والأجفان والأهداب خدم له وحجاب وحراس، فتبارك الله أحسن الخالقين.

الحكمة البالغة في تركيب العظام:

ثم انظر إلى الحكمة البالغة في تركيب العظام قوامًا للبدن وعمادًا له، وكيف قدرها ربها وخالقها بتقادير مختلفة وأشكال مختلفة: فمنها الصغير والكبير، والطويل، والقصير، المنحني، والمستدير، والدقيق والعريض، والمصمت والمجوف، وكيف ركب بعضها على بعض فمنها ما تركيبه تركيب الذكر في الأنثي، ومنها ما تركيبه تركيب اتصال فقط، وكيف اختلف أشكالها باختلاف منافعها كالأضراس، فإنها لما كانت آلة للطحن جعلت عريضة، ولما كانت الأسنان آلة للقطع جعلت مستدقة محدوة، ولما كان الإنسان محتاجًا إلى الحركة بجملة بدنه وببعض أعضائه للتردد في حاجته لم يجعل عظامه عظمًا واحدًا، بل عظامًا متعددة، وجعل بينها مفاصل حتى تتيَّسر بها الحركة وكان قدر كل واحد منها وشكلة على حسب الحركة المطلوبة منه وكيف شد أسر تلك المفاصل والأعضاء وربط بعضها ببعض بأوتار ورباطات أنبتها من العظم وألصق أحد طرفي العظم بالطرف الآخر كالربط له ثم جعل في أحد طرفي العظم زوائد خارجة عنه، وفي الآخر نقرًا غائصة فيه موافقة لشكل تلك الزوائد ليدخل فيها وينطبق عليها، فإذا أراد العبد أن يحرك جزءًا من بدنه لم يمتنع عليه ولولا المفاصل لتعذر ذلك عليه[1].

الحكمة في خلق الشعر:

ثم تأمَّل حال الشعر ومنبته وسببه، فإن البدن لما كان حارًا رطبًا، والحرارة إذا عملت في الرطوبة فلابد أن تثير بخارًا، وتلك الأبخرة تتصاعد من عمق البدن إلى سطحها، وتريد الانفصال من هناك، فلابد أن تحدث مسامًا ومنافذ في ظاهر الجلد، وتلك الأبخرة إما أن تكون رطبة لطيفة، فحينئذ تنفصل من المسام ولا تحدث شيئًا، وإما أن تكون

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ٢٩٣).

يابسة غليظة، فالجلد حينئذ إما أن يكون في نهاية النعومة والنضارة كجلد الصبيان، أو في غاية اليبس والقشف؛ أو يكون معتدلًا فإذ ذاك لا يتولد فيه الشعر، لأن البخار إذا شق سطح الجلد وانفصل عاد الجلد في الحال إلى اتصاله الأول، بسبب كثرة رطوبته ونعومته، مثاله إذا رفع رأسه من الماء انشق له الماء فإذا عاد إلى الماء عاد إلى اتصاله الأول، وكذلك نشاهد الأشياء الرطبة كالنشاء[1] مثلًا إذا أغلى فخرج البخار من موضع الغليان عادت الرطوبة إلى الموضع الذي خرج منه ذلك البخار فسدته، فإذا كان الجلد في غاية اليبس لم يتولد الشعر، لأن الجلد اليابس إذا انثقب بقيت تلك الثقوب مفتوحة ليبس الجلد، فيفرق أجزاءه البخار ولا يجتمع بعضه إلى بعض، فأما الجلد المتوسط بين النعومة والكثافة فإنه يتفتح فيه المسام بسبب تلك الأبخرة ولا يعود ينسد بعد خروج البخار، ولكن لا تبقى المسام شديدة الانفتاح، وحينئذ يبقى ذلك البخار الدخاني في تلك الثقبة، لا يزال يمده بخار آخر يدفعه أولًا بأول إلى خارج، من غير أن ينقطع أصله، فيبقى بعضه مركوزًا في الجلد، منزله منزلة أصل النبات وبعضه يطلع إلى خارج منزلته منزلة ساق النبات وكذلك الشعر، فمادة الشعر هي البخار الدخاني اليابس، وسببه هو الحرارة الطبيعية المحروقة لذلك البخار، والآلة التي بها أمره هي المسام التي ارتكن فيها البخار فتبلد هناك فصار شعرًا بإذن الله تعالى .

والغاية التي من أجلها وُجد شيئان: أحدهما عام وهي تنقية البدن من الفضول الدخانية الغليظة، والآخر خاص هو إما للزينة وإما للوقاية.

وإذا بأن أن الشعر إنما يتولد معه الحرارة واليبس المعتدل بقيت ثلاثة أقسام أحدها حرارة غالبة على اليبس كالصبيان، والثاني عكسه وهو يبس غالب على الحرارة كالمشائخ، الثالث: حرارة ضعيفة ويبس ضعيف كأبدان النساء ففي هذه الأقسام يقل الشعر وأما الشباب فإن حرارة أبدانهم ويبسهم معتدل فيقوي تولد الشعر فيهم.

(١) النشاء هي النشا وهو مسحوق أبيض يكثر في الحبوب والنباتات كالبطاطس.

وفي شعر الرأس منافع ومصالح منها وقايته عن الحر والبرد والمرض، ومنها الزينة والحسن.

والسبب الذي صار به شعر الرأس أكثر من شعر البدن هو أن البخار شأنه أن يصعد من جميع البدن إلى الدماغ ومن الدماغ إلى فوق، وكان هذا الشعر ناميًا على الدوام لأن البخار يتصاعد إلى الرأس أبدًا وهو مادة الشعر، فبنماء الشعر ينمو البخار، وكان فيه تخليص للبدن من تلك المواد وتكثير لوقايته وغطائه.

الحكمة في خلق شعر الحاجبين:

وأما شعر الحاجبين ففيه مع الحسن والزينة والجمال- وقاية للعين مما ينحدر من الرأس وجعل على هذا المقدار؛ لأنه لو نقص عنه لزالت منفعة الجمال والوقاية، ولو زاد عليه لغطى العين وأضر بها وحال بينها وبين ما تدركه، قد ذكرنا، منفعة شعر الهدب ولما كان الأنفع والأصلح أن يكون شعر الهدب قائمًا منتصبًا وأن يكون باقيًا على حال واحد في مقدار واحد، جعل منبت هذا الشعر في جرم صلب شبيه بالغضروف يمتد في طول الجفن؛ لئلا يطول وينمو وهذا كما نشاهد النبات الذي ينبت في الأرض الرخوة اللينة فإنه يطول ويزداد، والذي ينبت في الأرض الصخرية الصلبة لا ينمو إلا يسيرًا، فكذلك الشعر والنبات في الأعضاء اللينة الرطبة، فإنه سريع النمو كشعر الرأس والعانة.

الآيات في شعر اللحية:

وأما شعر اللحية ففيه منافع: منها الزينة، والوقار والهيبة ولهذا لا يُرى على الصبيان والنساء من الهيبة والوقار ما يرى على ذوي اللحى، ومنها التمييز بين الرجال والنساء.

فإن قيل: لو كان شعر اللحية زينة لكان النساء أولى به من الرجال لحاجتهن إلى الزينة، وكان التمييز يحصل بخلو الرجال منه، ولكان أهل الجنة أولى وقد ثبت أنهم جردٌ مرد؟

قيل: الجواب أن النساء لما كن محل الاستمتاع والتقبيل كان الأحسن والأولى خلوهن عن اللحى فإن محل الاستمتاع إذا خلا عن الشعر كان أتم، ولهذا المعني- والله أعلم- كان أهل الجنة مُردًا ليكمل استمتاع نسائهم بهم كما يكمل استمتاعهم بهن، وأيضًا فإنه أكشف لمحاسن الوجوه، فإن الشعر يستر ما تحته من البشرة أن يمس بشرة المرأة والله أعلم بحكمته في خلقه.

الآيات في شعر العانة والإبط والأنف:

وأما شعر العانة والإبط والأنف فمنفعته تنقية البدن من الفضلة، ولهذا إذا أزيل من هذا الموضع وجد البدن خفة ونشاطًا، وإذا وفر وجد ثقلًا وكسلًا وغمًا، ولهذا جاءت الشريعة بحلق العانة ونتف الإبط، وكان حلق العانة أولى من نتفها لصلابة الشعر وتأذي صاحبه بنتفه، وكان نتف الإبط أولى من حلقه لضعف الشعر هناك وشدته وتعجل نباته بالحلق فجاءت الشريعة بالأنفع هذا وهذا.

الحكمة من إخلاء الكفين والجبهة والأخمصين من الشعر؟

وتأمل حكمة الرب تعالى في كونه أخلي الكفين والجبهة والأخمصين من الشعر، فإن الكفين خلقا حاكمين على الملموسات فلو حصل الشعر فيهما لأخل بذلك، وخلقا للقبض والصاق اللحم على المقبوض أعون على جودته من التصاق الشعر به، وأيضًا فإنهما آلة الأخذ والعطاء والأكل ووجود الشعر فيهما يخل بتمام هذه المنفعة.

وأما الأخمصان[1] فلو نبت الشعر فيها لأضر بالماشي وأعاق كثيرًا مما يعلق بشعره مما على الأرض، ويتعلق شعره بما عليها أيضًا، هذا مع أن أكثر الأوتار والأغشية في الكفين مانع من نفوذ الأبخرة فيها. وأما الأخمصين فإن الأبخرة تتصاعد إلى علو،

(١) الأخمص هو باطن القدم الذي يتجافي عن الأرض.

وكلما تصاعد كان الشعر أكثر وأيضًا فإن كثرة وطء الأرض بالأخمصين يجعل سطحهما أملس لا ينبت شيئًا كما أن الأرض التي توطأ كثيرًا لا تنبت شيئًا.

وأما الجبهة فلو نبت الشعر عليها لستر محاسنها وأظلم الوجه، وتدلى على العين وكان يحتاج إلى حلقه دائمًا، ومنع العينين من كمال الإدراك، والسبب المؤدي لذلك أن الذي تحت عظم الجبهة هو مقدم الدماغ وهو بارد رطب، والبخار لا يتحرك منحرفًا إلى الجبهة، بل صاعدًا إلى فوق.

فإن قيل: لم نبت شعر الصبَّي على رأسه وحاجبيه وأجفانه معه من الصغر دون سائر الشعور؟ قيل: لشدة الحاجة إلى هذه الشعور الثلاثة أوجدها الله سبحانه معه وهو جنين في بطن أمه فإن شعر الرأس كالغطاء الواقي له من الآفات والأهداب والأجفان وقاية للعين.

فإن قيل: لم لم تنبت له اللحية إلا بعد بلوغه؟

قيل: لأنه عند البلوغ تجتمع الحرارة في بدنه وتكون أقوى ما هي ولهذا يعرض له في مثل هذا الطور البثرات والدمامل وكثرة الاحتلام، وإذا كثرت الحرارة كثرت الأبخرة بسبب التحلل وزادت على القدر المحتاج إليه في شعر الرأس فصرفها أحكم تصريف إلى نبات اللحية والعانة، وأيضًا فإن بين أوعية المني وبين اللحية ارتباط؛ إذ العروق والمجاري متصلة بينهما فإذا تعطلت أوعية المني ويبست تعطل شعر اللحية وإذا قلت الرطوبة والحرارة هناك قل شعر اللحية ولهذا فإن الخصيان لا ينبت لهم لحية.

فإن قيل: فما العلة في الكوسج[1]؟

قيل: برد مزاجه ونقصان حرارته.

---

(١) الكوسج: هو الأمرد الذي لم تنبت له لحية.

فإن قيل: فما السبب في الصلع؟ قيل: عدم احتباس الأبخرة في موضع الصلع.
فإن قيل: فلم كان مقدم الرأس دون جوانبه ومؤخره؟ **قيل:** لأن الجزء المقدم من الرأس بسبب رطوبة الدماغ يكون أكثر لينًا وتحللًا، فتتحلل الفضلات التي يكون منها الشعر فلا يبقى للشعر مادة هناك.

فإن قيل: فلم لم يحدث في الأصداغ؟ قيل: إن الرطوبة في الأسافل أكثر منها في الأعالي وشاهده الأرض العالية والمنخفضة.

فإن قيل: فلم لم تصلع المرأة إلا نادرًا وكان الصلع في الرجال أكثر؟ قيل: لأن الأصل أنه يحدث من يبس الجلد بمنزلة احترقه، وذلك لقوة الرطوبة، وأما النساء فالرطوبة والبرودة أغلب عليهن، ولهذا فإن جلودهن أرطب من جلود الرجال فلا تجف جلود رؤوسهن فلا يعرض لهن الصلع، ولهذا لا يعرض للصبيان وإن عرض للمرأة صلع فذلك في سن يبسها وبلوغها من الكبر عتيًا.

فإن قيل: ما السبب في شدة سواد الشعر ؟

قيل: شدة البخارات الخارجة من البدن واعتدالها وصحة مادتها كخضرة الزرع.

فإن قيل: ما سبب الصهوبة[١] ؟ قيل: برد المزاج فتضعف الحرارة عن صبغ الشعر وتسويده.

فإن قيل: ما سبب الشقرة[٢] والحمرة؟ قيل: زيادة الحرارة فتصبغ الشعر، ولهذا تجد الشُقر أشد حرارة وأكثر حركة وهمة.

فإن قيل: فما سبب البياض؟

---

(١) الأصهب هو ذو اللون الأصفر الضارب إلى شيء من الحمرة والبياض.

(٢) الأشقر: هو ذو الشعر الأصفر، والشقرة: بياض البشرة مع ميل إلى الحمرة.

قيل البياض نوعان: أحدهما طبيعي وهو الشيب، والثاني: خارج عن الطبيعة وهو ما يوجد في أواخر الأمراض المجففة بسبب تحلل الرطوبات كما يعرض للنبات عند الجفاف.

فإن قيل: فما سبب الطبيعي؟

قيل: اختلف في ذلك فقالت طائفة: سببه الاستحالة إلى لون البلغم بسبب ضعف الحرارة في أبدان الشيوخ. وقالت طائفة: سببه أن الغذاء الصائر إلى الشعر يصير باردًا بسبب نقصان الحرارة ويكون بطئ الحركة مدة نفوذه إلى المسام وجمعت طائفة بين القولين وقالو: العلة في الأمرين واحد وسببها نقصان الحرارة.

فإن قيل: فلم اختص الشيب بالإنسان من بين سائر الحيوان؟

قيل: لأن لحم الإنسان وجلده رخوين وجلود الحيوانات ولحومها أقوي وأصلب، فلما غلظت مادة الشعر فيها لم يعرض له ما يعرض لشعر الإنسان ولهذا يكون شعرها كلها من حين ولادتها بخلاف الإنسان، وأيضًا فإن الإنسان يستعمل المطاعم المركبة المتنوعة وكذا المشارب، ويتناول أكثر من حاجته، فتجتمع فيه فضلات كثيرة، فتدفعها الطبيعة إلى ظاهر البدن، فمادامت الحرارة قوية، فإنها تقوي على إحراق تلك الفضلات، فتولد من إحراقها الشعر الأسواد، فإذا بلغ الشيخوخة ضعفت الحرارة وعجزت عن إحراق تلك الفضلات، فتعمل فيها عملًا ضعيفًا، وأما سائر الحيوانات فلا تتناول الأغذية المركبة، وتتناول منها على قدر الحاجة فلا يشيب شعرها كما يشيب شعر الإنسان، وأيضًا فإن في زمن الشيخوخة يكون أقل حرارة وأكثر رطوبة فيتولد البلغم وأما الحيوانات فاليبس غالب عليها.

فإن قيل: فلم كان شيب الأصداغ في الأكثر مقدمًا على غيره؟ **قيل**: لقرب هذا الموضع من مقدم الدماغ والرطوبة في مقدم الدماغ كثيرة، لأن الموضع مفصل والمفصل تجتمع فيه الفضلة الكثيرة فيكثر البرد هناك فيسرع الشيب.

فإن قيل: فلم كان شعر الإبط لا يبيض؟

قيل: لقوة حرارة هذا الموضع بسبب قربه من القلب ومسامه كثيرة، بلغمية؛ لأنها تتحلل بالعرق الدائم.

فإن قيل: فلم أبطأ بياض شعر العانة؟

قيل: لأن حركة الجماع تحلل البلغم الذي في مسامه.

فإن قيل: فما سبب الجعودة والسبوطة؟

قيل: أما الجعودة فمن شدة الحرارة[1] أو من التواء المسام فالذي من شدة الحرارة فإنه تعرض من الجعودة كما تعرض عند عرضه على النار، وأما الذي لالتواء المسام فلأن البخار لضعفه لا يقدر أن ينفذ على الاستقامة فيلتوي في المنافذ فتحدث الجعودة.

فإن قيل: فما السبب في طول شعر الميت وأظفاره بعد موته إذا بقي مدة؟

قيل عنه جوابان: أحدهما أنها لا تطول ولكن لما ينقص ما حولها يظن أنها زادت. والثاني: وهو أصوب أن ذلك الطول من الفضلات البخارية التي تتحلل وهللة من الميت فيمتد معها الشعر والظفر.

فإن قيل: فلم كان المريض- وخاصة المحموم- ينتقص لحمه ويزيد شعره؟

قيل: إن في المرض تكثر الفضلات فتطول الشعور والأظفار ويثقل الغذاء فيذوب اللحم، وأما في الصحة فتقل الفضلات، وإذا قلت الفضلات نفدت مادة الشعر فيبطئ.

---

(١) ولا يخفى على أحد أن الصفة الثابتة لسكان المناطق الحارة هي جعودة الشعر.

فإن قيل: فما العلة في انتصاب شعر الخائف والمقرور[١] حتى يبقى كشعر القنفد.

قيل: العلة فيه أن الجلد ينقبض وتجتمع المسام على الشعر وتتضايق عليه فينتصب.

فإذا قيل: فلم كان الرأس بالشعر أحسن الأعضاء ونباته أكثر؟ قيل: لأن البخار يتصاعد ويطلب جبهة الفوق وهو الرأس ولا تستطل هذا الفصل فإن أمر الشعر من السمات والفضلات وهذا شأنه، فما الظن بغيره من الأجزاء الأصلية؟ فإذا كانت هذه قليلة من حكمة الرب تعالى في الشعر ومواضعها ومنافعها فكيف بحكمته في الرأس والقلب والكبد والصدر وغيرها؟ ولا تضجر من ذلك فإن الخلق فيه من الفقه والحكم نظير ما في الأمر، فالرب تعالى حكيم في خلقه وأمره، ويحسب من يفقه عنه ذلك وسيدل على كمال حكمته وعلمه ولطفه وتدبيره، فإذا كان الله لم يضع هذه الفضلات في الإنسان سُدى فما الظن بغيرها؟[٢].

لقد زين سبحانه الرأس بالشعر وجعله لباسًا له لاحتياجه إليه وزين الوجه بما أنبت فيه من الشعور المختلفة الأشكال والمقادير فزينه بالحاجبين وجعلهما وقاية لما يتحدر من بشرة الرأس إلى العين وقوسهما وأحسن خطهما وزين أجفان العينين بالأهداب وزين الوجه أيضًا باللحية وجعلها كمالًا ووقارًا ومهابة للرجل وزين الشفتين بما أنبت فوقها من الشارب وتحتهما من العنفقة.

الحكمة في خلق الرأس:

والرأس يقال بالعموم على ما يقله العنق بجملته، ويقال بالخصوص على الفروة، وهي جلدة الرأس حيث منبت الشعر، والجمجمة العظم الذي يحوي الدماغ، وهي مؤلفة من سبع متقابلة تسمى القبائل، وتسمى مواضع التآليف شئونًا، ووسط الجمجمة

(١) المقرور من أصابه البرد.

(٢) «التبيان في أقسام القرآن» [٢٦١-٢٧١] باختصار.

يسمى الهامة، وحد الهامة من الجانبين قرن الرأس، وحد الهامة من المقدم اليافوخ، ومن المؤخر القمحدوة[١] وهي ما يصيب الأرض من رأس المستلقي على ظهره، ولها ثلاث حدود: نقرة القفا، والقذالان، فنقرة القفا حدها من آخر الوسط، والقذلان جانبًا النقرة. وسنظهر الجمجمة عما يحيط بها: السِّمْحَاق وسطها غشاوتان: إحداهما تلى الجمجمة، وهو أثخنهما وأصلبهما، والآخر يكتنف الدماغ ويحيط به ويخالطه، ويقال لكل منهما: أم الدماغ، ويسميان الأمان، ومنه الآمة، والمأمومة التي فيها ثلث الدية، وهي الجراحة التي تبلغ أم الدماغ، ويقال لها: تجويف الدماغ.

وبطن وهي ثلاثة بطون، وبين الدماغ اللذين في مؤخره ووسطه مجرى فيه قطعة من الدماغ مستطيلة شبيهة بالدودة، ينسد ذلك المجري ويفتح بها، وتحت الدماغ سبلة[٢] مبسوطة من عروق ضوارب، يتولد منها روح نفساني ينفذ إلى البطنين في مقدمة الدماغ.

وفي الدماغ البركة، والحوض، والقمح، والدودة، والبطون، والأغشية، ومبادئ الأعصاب، ويحتوي الدماغ على ثلاث خزائن نافذ بعضها إلى بعض وتسمي بطونًا: فالأول في مقدمه تنقسم إلى قسمين، والثانية في وسطه، والثالثة في مؤخرهن وجوهر الدماغ مخي متزرد الشكل، كأنه زرد مجموعة، والروح النفساني مثبت في خلل الزرد والدماغ، مقسوم طوله لنصفين متضامنين، والتنصيف في مقدم الدماغ أظهر، والغشاءان يدخلان في فصول الدماغ وتزيده، والصلب منهما يدخل بطونًا بين جزءي البطن المقدم فيحجز بينهما، وتحته مصفى كالبركة تسمي المعصرة، تصب في العروق الدم المنضج، وتنبعث في جداول تسقي البطن المقدم، وتجتمع إلى عرقين كبيرين يحملان الدم الأوسط

(١) القَمَحْدُوَةُ: هي عظمة بارزة في مؤخر الرأس فوق القفا.

(٢) السبلة: هي السنبلة وسبلة الرجل الدائرة التي في وسط شفته العليا.

والمؤخر، والبطن الأوسط كدهليز ومنفذ بين المقدم والمؤخر، وسقفه معقود كالأزج[١]، والدماغ موضوع طولًا على زائدتين متقاربتين، فيتماسان ويتباعدان إلى الانفراج فيفتح الدهليز ويتراءى البطنان المقدم والمؤخر، والجزء المؤخر أخفى تدويرًا من المقدم وأصغر زردًا[٢]، وهو كري الاستطالة ويستدق على التدريج، حتى يسيل منه النخاع كالجدول من العين.

وفي الدماغ مجريان: أحدهما في آخر المقدم؛ والمؤخر في الأوسط لدفع فضوله، ويجتمعان عند منفذ واحد عميق، أولهما في الغشاء الرقيق، والآخر في الغشاء الصلب يأخذ إلى ضيق كالقمع.

ولما كان الدماغ مبدأ حركات البدن إلى إرادته، ولم يكن به حاجة إلى الحركة القوية، فحوط عليه بسور من عظام بخلاف المعدة، والكبد والرحم، وسائر آلات الغذاء، فإنها لما احتاجت إلى أن تتسع وتمتلئ بالغذاء فتحمل مرة بعد أخرى، وأن تعصر الفضول فتخرجها، والعظم يمنع من ذلك، ويكتفي فيه الفصل وحده، فأحيط عليه بسور من عظم.

وأما الصدر فإنه لما احتاج إلى الوثاقة بالعظام وإلى الحركة بالفصل ألف الصدر منهما، وكان البطن أوسع من الصدر، لما يحل بها من آلات الغذاء والتنفس، والطحال، والمريء، وغيرها[٣].

ثم انظر كيف جعل الرقبة مركبًا للرأس وركبها من سبع خرزات مجوفات مستديرات ثم طبق بعضها على بعض وركب كل خرزة تركيبًا محكمًا متقنًا حتى صارت كأنها خرزة واحدة.

---

(١) الأَزَجُ: بناء مستطيل مقوَّس السقف.

(٢) الزرد: حلق المخفر والدرع.

(٣) «التبيان في أقسام القرآن» [٣٣٢-٣٣٤].

ثم ركب الظهر من أعلاه إلى منتهى عظم العجز من أربع وعشرين خرزة مركبة بعضها في بعض هي مجمع أضلاعه والتي تمسكها أن تنحل وتنفصل ثم وصل تلك العظام بعضها ببعض فوصل عظام الظهر بعظام الصدر وعظام الكتفين بعظام العضدين والعضدين بالذراعين والذراعين بالكف والأصابع.

وانظر كيف كسا العظام العريضة كعظام الظهر والرأس كسوة من اللحم تناسبها والعظام الدقيقة كسوة تناسبها كالأصابع والمتوسطة كذلك كعظام الذراعين والعضدين فهو مركب على ثلاثمائة وستين عظمًا منها مائتان وثمانية وأربعون مفاصل وباقيها صغار حشيت خلال المفاصل فلو زادت عظمًا واحدًا لكان مضرة على الإنسان يحتاج إلى قلعه ولو نقصت عظمًا واحدًا كان نقصانًا يحتاج إلى جبره فالطبيب ينظر في هذه العظام وكيفية تركيبها ليعرف وجه العلاج في جبرها والعارف ينظر فيها ليستدل بها على عظمة باريها وخالقها وحكمته وعلمه ولطفه وكم بين النظرين.

ثم إنه سبحانه ربط تلك الأعضاء والأجزاء بالرباطات فشد بها أسرها وجعلها كالأوتاد تمسكها وتحفظها حتى بلغ عددها إلى خمسمائة وتسعة وعشرين رباطًا وهي مختلفة في الغلظ والدقة والطول والقصر والاستقامة والانحناء بحسب اختلاف مواضعها ومحالها، فجعل منها أربعة وعشرين رباطًا آلة لتحريك العين وفتحها وضمها وإبصارها ولو نقضت منهن رباطًا واحدًا اختل أمر العين وهكذا لكل عضو من الأعضاء رباطات هن له كالآلات التي بها يتحرك ويتصرف ويفعل كل ذلك صنع الرب الحكيم وتقدير العزيز العليم في قطرة ماء مهين فويل للمكذبين وبعدًا للجاحدين[1].

(١) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٢٩٨)

من حكمة اليدين:

وكذلك خلقه سبحانه لليدين اللتين هما آلة العبد وسلاحه ورأس مال معاشه، فطولهما بحيث يصلان إلى ما شاء من بدنه، وعرض الكف ليتمكن به من القبض والبسط، وقسم فيه الأصابع الخمس وقسم كل إصبع بثلاث أنامل والإبهام باثنتين ووضع الأصابع الأربعة في جانب والإبهام في جانب لتدور الإبهام على الجميع فجاءت على أحسن وضع صلحت به للقبض والبسط ومباشرة الأعمال؛ ولو اجتمع الأولون والآخرون على أن يستنبطوا بدقيق أفكارهم وضعًا آخر للأصابع سوى ما وضعت عليه لم يجدوا إليه سبيلًا فتبارك من لو شاء لسواها وجعلها طبقًا واحدًا كالصفيحة فلم يتمكن العبد بذلك من مصالحه وأنواع تصرفاته ودقيق الصنائع والخط وغير ذلك، فإن بسط أصابعه كانت طبقًا يضع عليه ما يريد، وإن ضمها وقبضها كانت دبوسًا وآلة للضرب، وإن جعلها بين الضم والبسط كانت مغرفة له يتناول بها وتمسك فيها ما يتناوله.

وركب الأظفار على رؤسها زينةً لها وعمادًا ووقاية وليلتقط بها الأشياء الدقيقة التي لا يناله جسم الأصابع وجعلها سلاحًا لغيره من الحيوان والطير وآلة لمعاشه وليحك الإنسان بها بدنه عند الحاجة.

فالظفر الذي هو أقل الأشياء وأحقرها لو عدمه الإنسان ثم ظهرت به حكة لاشتدت حاجته إليه ولم يقم مقامه شيء في حك بدنه ثم هدى اليد إلى موضع الحك حتى تمتد إليه ولو في النوم والغفلة من غير حاجة إلى طلب ولو استعان بغيره لم يعثر على موضع الحك إلا بعد تعب ومشقة، ثم انظر إلى الحكمة البالغة في جعل عظام أسفل البدن غليظة قوية لأنها أساس له وعظام أعاليه دونها في الثخانة والصلابة لأنها محمولة [1].

---

(١) السابق نفس الصفحة.

الحكمة الربانية في خلق الغرائز البشرية:

فارجع الآن إلى نفسك وفكر في هذه الأفعال الطبيعية التي جعلت في الإنسان وما فيها من الحكمة والمنفعة وما جعل لكل واحد منها في الطبع المجرد والداعي الذي يقتضيه ويستحثه، فالجوع يستحث الأكل ويطلبه لما فيه من قوام البدن وحياته ومماته، والكرى[١] يقتضي النوم ويستحثه لما فيه من راحة البدن والأعضاء وإجمام القوى وعودها إلى قوتها جديدة غير كالة.

والشبق[٢] يقتضي الجماع الذي به دوام النسل وقضاء الوطر وتمام اللذة، فتجد هذه الدواعي تستحث الإنسان لهذه الأمور وتتقاضاها منه بغير اختياره وذلك عين الحكمة فإنه لو كان الإنسان إنما يستدعي هذه المستحثات إذا أرادها لأوشك أن يشتغل عنها بما يعروه من العوارض مدة فينحل بدنه ويهلك ويترامى إلى الفساد وهو لا يشعر كما إذا احتاج بدنه إلى شيء من الدواء والصلاح فدافعه وأعرض عنه حتى إذا استحكم به الداء أهلكه.

فاقتضت حكمة اللطيف الخبير أن جعلت فيه بواعث ومستحثات تؤزه[٣] أزًا إلى ما فيه قوامه وبقاؤه ومصلحته وترد عليه بغير اختياره ولا استدعائه فجعل لكل واحد من هذه الأفعال محرك من نفس الطبيعة يحركه ويحدوه[٤] عليه ثم انظر إلى ما أعطيه من القوى المختلفة التي بها قوامه فأعطي القوة الجاذبة الطالبة المستحثة التي تقتضي معلومها من الغذاء فتأخذه وتورده على الأعضاء بحسب قبولها، ثم أعطي القوة الممسكة التي

---

(١) الكرى هو النعاس.

(٢) الشبق هو: شدة الشهوة.

(٣) تؤزُّه أزًا: تدفعه دفعًا وتحركه.

(٤) يحدوه يسوقه ويدفعه.

تمسك الطعام وتحبسه ريثما تنضجه الطبيعة وتحكم طبخه وتهيؤه لمصارفه وتبعثه لمستحقه، ثم أعطي القوة الهاضمة التي تصرفه في البدن وتهضمه عن المعدة، ثم أعطي القوة الدافعة وهي التي تدفع ثقله ومالا منفعة فيه فتدفعه وتخرجه عن البدن؛ لئلا يؤذيه وينهكه.

فمن اعطاك هذه القوة عند شدة حاجتك إليها؟ ومن جعلها خادمًا لك؟ ومن أعطاها أفعالها واستعمل كل واحد منها على غير عمل الآخر؟ ومن ألفَّ بينها على تباينها حتى اجتمعت في شخص واحد ومحل واحد ولو عادى بينها كان بعضها يذهب بعضًا فمن كان يحول بينه وبين ذلك؟ فلولا القوة الجاذبة كيف كنت متحركًا لطلب الغذاء الذي به قوام البدن؟ ولولا الممسكة كيف كان الطعام يذهب في الجوف حتى تهضمه المعدة؟ ولولا الهاضمة كيف كان يطبخ حتى يخلص منه الصفو إلى سائر أجزاء البدن وأعماقه، ولولا الدافعة كيف كان الثقل المؤذي القاتل لو انحبس يخرج أولًا فأولًا فيستريح البدن فيخف وينشط.

فتأمل كيف وكلت هذه القوة بك والقيام بمصالحك، فالبدن كدار للملك فيها حشمه وخدمه قد وكل بتلك الدار أقوامًا يقومون بمصالحها فبعضهم لاقتضاء حوائجها وإيرادها عليها، وبعضهم لقبض الوارد وحفظه وخزنه إلى أن يهيأ ويصلح، وبعضهم يقبضه فيهيئه ويصلحه ويدفعه إلى أهل الدار ويفرقه عليهم بحسب حاجاتهم، وبعضهم لمسح الدار وتنظيفها وكنسها من المزابل والأقذار، فالملك هو الملك الحق المبين جل جلاله والدار أنت والحشم، والخدم الأعضاء والجوارح والقَوَّام عليها هذه القوى التي ذكرناها[1].

(١) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٤٢٠-٤٢١).

حال الإنسان من البداية إلى النهاية:

نحن نذكر فصلًا مختصرًا في حال الإنسان من مبدئه إلى نهايته؛ لنجعله مرآة له ينظر فيها قول خالقه وبارئه ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾[الذاريات:٢١].

لما اقتضى كمال الرب- تعالى جل جلاله- وقدرته التامة، وعلمه المحيط ومشيئته النافذة، وحكمته البالغة، تنويع خلقه من المواد المتباينة[١]، وأنشأهم من الصور المختلفة، والتباين العظيم بينهم في المواد والصور والصفات والهيئات والأشكال والطبائع والقوى، اقتضت حكمته أن أخذ من الأرض قبضة من التراب، ثم ألقي عليها الماء، فصارت مثل الحمأ المسنون، ثم أرسل عليها الريح فجففها، حتى صارت صلصالًا كالفخار، ثم قدر لها الأعضاء والمنافذ والأوصال والرطوبات، وصورها فأبدع في تصويرها، وأظهرها في أحسن الأشكال، وفصلها أحسن تفصيل مع اتصال أجزائها، وهيأ كل جزء منها لما يراد منه، وقدره لما خلق له من أبلغ الوجوه، ففصلها في توصيلها، وأبدع في تصويرها وتشكيلها، والملائكة تراها ولا تعرف ما يُراد منها، وإبليس يطيف بها، ويقول: لأمر ما خلقت، فلما تكامل تصويرها، وتشكيلها، وتقدير أعضائها وأوصالها، وصارت جسدًا مصورًا مشكلًا كأنه ينطق، إلا أنه لا روح فيه ولا حياة، أرسل إليه روحه، فنفخ فيه نفخة، وانقلب ذلك الطين لحمًا ودمًا وعظامًا وعروقًا وسمعًا وبصرًا وشمًا ولمسًا وحركة وكلامًا، فأول شيء بدأ به أن قال: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ فقال: له خالقه وبارئه ومصوره: «يرحمك الله يا آدم»[٢] فاستوى جالسًا أجمل شيء وأحسنه منظرًا وأتمه خلقًا، وأبدعه صورة، فقال الرب تعالى لجميع ملائكته: ﴿ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ﴾[البقرة:٣٤]. فبادروا بالسجود، تعظيمًا وطاعة لأمر الواحد المعبود، ثم قال لهم: لنا في هذه القبضة من التراب شرع أبدع مما ترون، وجمال باطن أحسن مما تبصرون، فلنزينن باطنه أحسن من زينة

---

(١) المتباينة: يعني المختلفة.

(٢) يعني بذلك حواء لأنها خلقت من ضلع آدم.

ظاهره، ولنجعلنه من أعظم آياتنا، نعلمه أسماء كل شيء، مما لا تحسنه الملائكة، فكان التعليم زينة الباطن وجماله،وذلك التصوير زينة الظاهر في أكمل شيء وأجمله صورة، ومعنى كل ذلك صنعته تبارك وتعالى في قبضة من تراب، ثم اشتق منه صورة هي مثله في الحسن والجمال[١]، ليسكن إليها وتقر نفسه، وليخرج من بينهما من لا يحصي عدده من الرجال والنساء سواه.

فصل:

ثم لما أراد الله سبحانه أن يذرأ نسلهما في الأرض ويكثره، وضع فيهما حرارة الشهوة ونار الشوق والطلب، وألهم كلًا منهما اجتماعه بصاحبه، فاجتمعا على أمر قد قدر، فاسمع الآن عجائب ما هناك.

لما شاء الرب أن يخرج نسخة هذا الإنسان منه أودع جسده حرارة، وسلط عليه هيجانها، فصارت شهوة غالبة، فإن هاجت حرارة الجسد تحللت الرطوبة من جميع أجزاء الجسد، وابتدأت نازلة من خلف الدماغ، من عروق خلف الأذنين إلى قفا الظهر، ثم تخرج إلى الكليتين، ثم تجتمع في أوعية المني، بعد أن طبختها نار الشهوة، وعقدتها حتى صار لها قوام وغلظ، وقصرتها حتى ابيضت وقدر لها مجاري وطرق تنفذ فيها، ثم اقتضت حكمته سبحانه أن قدر لخروجها أقوى الأسباب المستفرغة لها من خارج ومن داخل، فقيض لها صورة حسنها في عين الناظر وشوقه إليها، وساق أحدهما إلى الآخر بسلسة الشهوة والمحبة، فحَّن كل منهما إلى امتزاجه بصاحبه، واختلاطه به، ليقضي الله أمرًا كان مفعولًا، وجعل هذا محل الحرث، وهذا محل البذر، ليلتقي الماء إن على أمر قد قُدِر، وقدَّر بينهما تلك الحركات لتعمل الحرارة في تلك الرطوبة والفضلة عملها، واستخرجها من تحت الشعر والبشر والظفر، لتوافق نسخة الأصل ويكون الداعي إلى

(١) الحديث في ذلك رواه ابن حبان برقم [٦١٦٥] وصححه الألباني في «صحيح الجامع» برقم [٥٢١٦] والآتي بعده ليس من الحديث.

التناسل في غاية القوة، فلا ينقطع النسل، ولهذا لا تجد في منى الاحتلام من القوة ما في مني الجماع، وإنما هو من فضلة حرارة تذيب الرطوبة، فتنفذ فيها الطبيعة إلى خارج، من نوع تصور خيال بواسطة الشيطان، كما في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «**الرؤيا الصالحة من الله، والحلم من الشيطان**»(١).

هل المنى متولد من كل أجزاء البدن؟

فإن قيل: فهذا اختيار منكم لقول من قال: إن المني يخرج من جميع أجزاء البدن، وهذا وإن كان قد قاله كثير من الناس فقد خالفهم آخرون، وزعموا أنه فضلة تتولد من الطعام، وهي من أعدل الفضلات، ولهذا صلحت أن تكون مبدأ الإنسان، وهو جسم متشابه في نفسه، قيل: القول الأول هو الصواب، ويدل عليه وجوه:

منها: عموم اللذة بجميع أجزاء البدن.

ومنها: أن المشابهة الكلية تدل على أن البدن كله أرسل المني، ولولا ذلك لكانت المشابهة بحسب محل واحد، فدل على أن كل عضو أرسل قسطه ونصيبه، فلما انعقد وصلب ظهرت محاكاته ومشابهته له.

ومنها: أن الأمر لو كان كما زعمه أصحاب المقالة الثانية، من أن المني جسم واحد متشابه في نفسه لم تتولد منه الأعضاء المختلفة، المتشكلة بالأشكال المختلفة، لأن القوة الواحدة لا تفعل في المادة الواحدة إلا فعلًا واحدًا، فدل على أن المادة في نفسها ليست متشابهة الأجزاء.

ومنها: أن المني فضلة الهضم الآخر، وذلك إنما يكون عند نضج الدم في العروق وكونه مستعدًا استعدادًا تامًا لأن يصير من جوهر الأعضاء، وكذلك عقيب استفراغه

---

(١) رواه البخاري برقم [٥٠٠٧].

من الضعف أكثر مما يحصل من استفراغ أمثاله من الدم، ولذلك يورث الضعف في جوهر الأعضاء الأصلية، فدل على أنه مركب من أجزاء كل منها قريب الاستعداد لأن يصير من عضو، ولذلك سماه الله«سلالة»، والسلالة «فُعالة» من السل وهو ما يسل من البدن، كبخار، كما سمي أصله سلالة من طين؛ لأنه من جميع الأرض، كما في جامع الترمذي عن النبي ﷺ: «**إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض**»(١).

قال أصحاب القول الآخر، وهم جمهور الأطباء وغيرهم: لو كان الأمر كما زعمتم وأن المني يستل من جميع الأعضاء، لكان إذا حصل مني الذكر ومني الأنثى في الرحم تشكل المولود بشكلهما معًا، ولكان الرجل لا يلد إلا ذكرًا دائمًا، لأن المني قد استل عندكم من جميع أجزائه، فإذا انقعد وجب أن يكون مثله. وأيضًا فإن المرأة تضع من وطء الرجل في البطن ذكرًا وأنثى ولا يمكن أن يقال: أن ذلك بسبب اختلاف أجزاء المني.

قالو: ولا نسلم عموم اللذة، لأنها إنما حصلت حال الاندفاق، بسبب سيلان تلك المادة الحارة جارية على تلك المجاري اللحمية التي لحميتها رخوة، شبيهة باللحم القريب العهد بالاندمال إذا سال عليه شيء، وهو معتدل السخونة، ولو كانت اللذة إنما حصلت بسبب سيلان تلك المادة لحصلت قبل الاندفاق، قالوا: وأما احتجاجكم بالتشابه المذكور بين الوالد والمولود فالمشابهة قد تقع في الظفر والشعر، وليس يخرج منها شيء، وأيضًا فالمولود قد يشبه جدًا بعيدًا من أجداده، كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ: أن رجلًا سأله، فقال: «إن امرأتي ولدت غلامًا أسود، قال: «**هل لك من إبل**» قال: نعم، قال: «**فما ألوانها؟**» قال: سود، قال:«**هل فيها من أورق؟**» قال: نعم، قال: «**فأنَّى له ذلك؟**» قال: عسى أن يكون نزعه عرق، قال:«**وهذا عسى أن يكون نزعه عرق**»(٢).

---

(١) رواه أبو داود برقم [٤٦٩٣]، والترمذي برقم [٢٩٥٥]، وصححه الألباني في الصحيحة برقم [١٦٣٠] وفي صحيح الجامع رقم [١٧٥٩].

(٢) رواه البخاري برقم [٦٤٥٥]، ومسلم برقم [١٥٠٠].

قالوا: ولو كان في المني من كل عضو أجزاء، فلا تخلو تلك الأجزاء، إما أن تكون موضوعة في المني وضعها الواجب، أو لا تكون كذلك، فإن كانت موضوعة وضعها الواجب كان المني حيوانًا صغيرًا، وإن لم تكن استحالت المشابهة.

قالوا: وأيضًا فإن المني إما أن يكون مركبًا على تركيب هذه الأعضاء وترتيبها أو لا يكون كذلك، فالأول باطل قطعًا، لأن المني رطوبة سيالة فلا تحفظ الوضع والترتيب، وإن كانت ثقيلة فتعين الثاني، ولابد قطعًا أن يحال ذلك الترتيب والتصوير والتشكيل على سبب آخر سوى القوة التي في المادة فإنها قوة لا شعور لها وإدراك، ولا تهتدي لهذه التفاصيل التي في الصورة الإنسانية، بل هذا التصوير والتشكيل مستند إلى خالق عليم قد بهرت حكمته العقول، ودلت آثار صنعه على كمال أسمائه وصفاته وتوحيده، وقد اعترف بذلك فاضلا الأطباء، وهما: بقراط وأفلاطون وأقرا بأن ذلك مستند إلى حكمة الصانع وعنايته، وأنه لم يصدر إلا عن حكيم عليم قدير، ذكره جالينوس عنهما في كتاب رأي بقراط وأفلاطون، فأبي جهلة الأطباء وزنادقة المتفلسفة والطبائعيين إلا كفرًا، وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ من حديث حذيفة بن أسيد «**إن الله وكل بالرَّحم ملكًا يقول: يارب نطفة، يارب علقة، يارب مضغة، فما الرزق؟ فما الأجل؟ فما العمل؟ فيقضي الله ما يشاء، ويكتب الملك**» وفي لفظ «**يقول الملك الذي يخلقها**[1]» أي يصورها بإذن الله، أي يصور خلقه في الأرحام كيف شاء الله لا إله إلا هو العزيز الحكيم.

فقال أصحاب القول الأول: نحن أحق بالتنزيه والتوحيد، ومعرفة حكمة الخالق العليم وقدرته وعلمه، وأسعد به منكم، ومن أحال من سفهائنا وزدناقتنا هذا التخليق على القوة المصورة، والأسباب الطبيعية، ولم يسندها إلى فاعل مختار عالم بكل شيء، قادر على كل شيء لا يكون شيء إلا بإذنه ومشيئته، والقوة الطبيعية خلق مسخر من خلقه، وعبد من جملة عبيده، ليس لها تصرف، ولا حركة ولا فعل إلا بإذن بارئها

(١) رواه مسلم برقم [٢٦٤٤].

وخالقها- فذلك الذي جهل نفسه وربه، وعادى الطبيعة والشريعة، والرب تعالى يخلق ما يشاء ويختار، ويصور خلقه في الأرحام كيف يشاء، بأسباب قَدَّرَهَا، وحكم دَبَّرَهَا، وإذا شاء أن يسلب تلك الأسباب قواها سلبها، وإذا شاء أن يقطع مسبباتها عنها قطعها، وإذا شاء أن يهيىء لها أسبابًا أخرى تقاومها وتعارضها فعل، فإنه الفعال لما يريد، وليس في كونه المني مستلًا من جميع أجزاء البدن ما يخرج الحوالة على قدرته ومشيئته وحكمته، بل ذلك أبلغ في الحكمة والقدرة.

وأما قولكم: لو كان المني مستلًا من جميع الأعضاء لكان الولد يتشكل بشكلهما معًا، فقد أجاب النبي ﷺ عمن سأله عن ذلك بما شفى وكفى، ففي صحيح البخاري من حديث أنس رضي الله عنه قال: بلغ عبد الله بن سلام مقدم رسول الله ﷺ المدينة، وهو في أرضه يخترف، فأتاه وقال: إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي: ما أول أشراط الساعة؟ وما أول طعام يأكله أهل الجنة؟ ومن أي شيء ينزع الولد إلى أبيه؟ ومن أي شيء ينزع إلى أخواله؟ فقال رسول الله ﷺ: «**أخبرني بهن آنفًا جبريل**» فقال عبد الله: ذاك عدو اليهود من الملائكة «**أما أول أشواط الساعة فنار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب، وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد الحوت، وأما الشبه في الولد فإن الرجل إذا غشي المرأة فسبق ماؤه كان الشبه لها**»[1] فقال: أشهد أنك رسول الله، فهذا جواب جبريل أمين رب العالمين لا جبريل الطبيب، وفي صحيح مسلم من حديث ثوبان عن النبي ﷺ «**إذا علا ماء الرجل ماء المرأة أذكر بإذن الله وإذا علا ماء المرأة ماء الرجل آنث بإذن الله**»[2]، وقد يتفق الماءان في الإنزال والقدر، وذلك من أندر الأشياء، فيخلق للولد ذكر كذكر الرجل وفرج كفرج المرأة، فإذا شاء الله أن يغلب سلالة ماء الرجل على ماء

(١) رواه البخاري برقم [٤٤٨٠].

(٢) رواه مسلم برقم[٣١٥].

المرأة أو سلالتها أمر ملك الأرحام بتصويره كذلك، فإن ذلك لا يخل بحكمته ولا يخرق عادته، ولو خرقها لم يخل بحكمة أحكم الحاكمين.

وأما منعكم عموم اللذة بالمكابرة، والمجامع يجد عند الإنزال شيئًا قد استل من جميع بدنه وسمعه وبصره وقواه في قالب الرحم، فيحس كأنه خلع قميصًا كان مشتملًا به ولهذا اقتضت حكمة الرب تعالى في شرعه وقدره أن أمره بالاغتسال، ذلك ليخلف عليه الماء ما تحلل من بدنه من ماء، وإذا اغتسل وجد نشاطًا وقوة، وكأنه لم ينقص منه شيء، فإن رطوبة الماء تخلف على البدن ما حللته تلك الحركة عن رطوباته، وتعمل فيها الحرارة الأصلية عملها، فتمد بها القوى التي ضعفت بالإنزال.

وأما التشابه الواقع بين الظفر والشعر في الوالد والمولود، ولم ينفصل بينهما شيء فما أبردها من شبهة، فإن الظفر والشعر تابعان للأعضاء، والمزاج الذي وقع فيه التشابه، فاستتبع تشابه الأصل تشابه التبع.

وأما شبه المولود بالجد البعيد من أجداده فهو من أقوى الأدلة لنا في المسألة؛ لأن ذلك الشبه البعيد لم يزال ينتقل في الأصلاب حتى استقر في صورة الولد، وبها حصل الشبه.

وأما قولكم: إن تلك الأجزاء لا تخلو إما أن تكون موضوعة في المني وضعها الواجب أو لا إلى آخره، فجوابكم: إنكم إن عنيتم أنها موضوعة بالفعل فليس كذلك، وإن أردتم أنها موضوعة بالقوة فنعم، وما المانع منه، ويكون المني حيوانًا صغيرًا، بل كبيرًا بالقوة؟ وبهذا ظهر الجواب عن قولكم: إن المني رطوبة سيالة لا تحفظ الوضع والتركيب، وغاية ما يقدر أن ذلك جزء من أجزاء السبب الذي يخلق الله به الولد،

وجزء السبب لا يستقل بالحكم، فالمستقل بالإيجاد مشيئة الله وحده والأسباب مَحَالّ الظهور[١].

مظاهر الحكمة في خلق التناسل:

انظر كيف جعلت آلات الجماع في الذكر والأنثى جميعًا على وفق الحكمة، فجعلت في حق الذكر آلة ناشزة تمتد حتى توصل المني إلى قعر الرحم بمنزلة من يناول غيره شيئًا فهو يمد يده إليه حتى يوصله إياه ولأنه يحتاج إلى أن يقذف ماءه في قعر الرحم.

وأما الأنثى فجعل لها وعاء مجوف لأنها تحتاج إلى أن تقبل ماء الرجل وتمسكه وتشتمل عليه فأعطيت آلة تليق بها.

ثم لما كان ماء الرجل ينحدر من أجزاء الجسد رقيقًا ضعيفًا لا يخلق منه الولد جعل له الأنثيان وعاء يطبخ فيهما ويحكم إنضاجه ليشتد وينعقد ويصير قابلًا لأن يكون مبدأ للتخليق ولم تحتج المرأة إلى ذلك لأن رقة مائها ولطافته إذا مازج غلظ ماء الرجل وشدته قوي به واستحكم ولو كان الماآن رقيقان ضعيفان لم يتكون الولد منهما.

وخص الرجل بآلة النضج والطبخ لحكم منها أن حرارته أقوى والأنثى باردة، فلو أعطيت تلك الآلة لم يستحكم طبخ الماء وإنضاجه فيها.

ومنها أن ماءها لا يخرج عن محله؛ بل ينزل من بين ترائبها[٢] إلى محله بخلاف ماء الرجل فلو أعطيت المرأة تلك الآلة لكانت تحتاج إلى آلة أخرى يوصل بها الماء إلى محله.

ومنها أنها لما كانت محلًا للجماع أعطيت من الآلة ما يليق بها فلو أعطيت آلة الرجل لم تحصل لها اللذة والاستمتاع ولكانت تلك الآلة معطلة بغير منفعة فالحكمة التامة فيما وجدت خلقة كل منهما عليه[٣].

---

(١) «التبيان في أقسام القرآن» [٢٧١-٢٧٩].

(٢) الترائب: صدر المرأة وقيل موضع القلادة من صدرها.

(٣) مفتاح دار السعادة [٣٩٨-٣٩٩].

وقال الله تعالى ذكره: ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴾ [الطارق: ٥-٧]. قال الزجَّاج: قال أهل اللغة أجمعون: التربة موضع القلادة من الصدر والجمع ترائب. وقال أبو عبيدة الترائب معلق الحلق من الصدر وهو قول جميع أهل اللغة وقال عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما يريد صلب الرجل وترائب المرأة وهو موضع قلادتها وهو قول الكلبي ومقاتل وسفيان وجمهور أهل التفسير وهو المطابق لهذه الأحاديث وبذلك أجرى الله العادة في إيجاد ما يوجده من أصلين كالحيوان والنبات وغيرهما من المخلوقات فالحيوان ينعقد من ماء الذكر وماء الأنثى كما ينعقد النبات من الماء والتراب والهواء ولهذا قال تعالى: ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾[الأنعام: ١٠١]. فإن الواد لا يكون إلا من بين الذكر وصاحبته، ولا ينقض هذا بآدم وحواء أبوينا ولا بالمسيح فإن الله سبحانه خلط تراب آدم بالماء حتى صار طينًا ثم أرسل عليه الهواء والشمس حتى صار كالفخار ثم نفخ فيه الروح وكانت حواء مستلة منه وجزءًا من أجزائه، والمسيح خلق من ماء مريم ونفخة الملك وكانت النفخة له كالأب لغيره(١).

للمرأة مني كالرجل:

فإن قيل: فهذا تصريح منكم بأن المرأة لها مني، وأن منيَّها أحد الجزئين اللذين يخلق الله منهما الولد، وقد ظن طائفة من الأطباء أن المرأة لا مني لها.

قيل: هذا هو السؤال الذي أوردته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، وأم سلمة رضي الله عنها على النبي صلى الله عليه وسلم وأجابهما عنه بإثبات مني المرأة، ففي الصحيح أن أم سليم رضي الله عنها

(١) التفسير القيم [٤١٣]، تحفة المودود [٩٣]، قلت: وفي النفس شيء من قوله «المسيح خلق من مريم» إذا إن ذلك مما يفتقر إلى دليل والله أعلم.

قالت: يا رسول الله لا يستحي من الحق، هل على المرأة من غسل إذا هي احتلمت؟ قال: «**نعم، إذا رأت الماء**»، فقالت أم سلمة: أو تحتلم المرأة؟ فقال: «**تربت يداك، فبم يشبهها ولدها؟**»[١] وفيهما عن عائشة رضي الله عنها أن أم سليم رضي الله عنها سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المرأة ترى في منامها ما يري الرجل، هل عليها من غسل؟ قال «**نعم، إذا رأت الماء**» قالت، فقلت له: أفترى المرأة ذلك؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**وهل يكون الشبه إلا من ذلك؟ إذا علا ماؤها ماء الرجل أشبه الولد أخواله، وإذا علا ماء الرجل ماءها أشبه أعمامه**»[٢] هذا لفظ مسلم، وقد ذكر جالينوس التشنيع على أرسطالين، حيث قال: إن المرأة لا مني لها، فلنحرر هذه المسألة طبعًا. كما حررت شرعًا فنقول:

مني الذكر من جملة الرطوبات والفضلات التي في البدن، وهذا أمر يشترك بين الذكر والأنثى، منه رأسًا يتخلق الولد، وبواسطته يكون الشبه، ولو لم يكن للمرأة مني لما أشبهها ولدها.

ولا يقال: إن الشبه سببه دم الطمث[٣]، فإنه لا ينعقد مع مني الرجل، ولا يتحد به وقد أجرى الله العادة بأن التوالد لا يكون إلا بين أصلين يتولد من بينهما ثالث.

ومني الرجل وحده لا يتولد منه الولد ما لم يمازجه مادة أخرى من الأنثى، وقد اعترف أرباب القول الآخر بذلك وقالوا: لابد من وجود مادة بيضاء لزجة للمرأة تصير مادة لبدن الجنين، ولكن نازعوا: هل فيها قوة عاقدة، كما في مني الرجل أم لا؟ وقد أدخل النبي صلى الله عليه وسلم هذه المسألة في الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه، من حديث ثوبان مولاه، حيث سأله اليهود عن الولد فقال: «**ماء الرجل أبيض، وماء المرأة أصفر، فإذا اجتمعا فَعَلا منيُّ الرجل منيَّ المرأة أذكر بإذن الله، وإذا عَلاَ مني المرأة**

(١) رواه البخاري برقم [١٣٠] ومسلم برقم [٧٣٨].

(٢) رواه مسلم برقم [٣١٤].

(٣) دم الطمث هو دم الحيض.

مني الرجل آنث بإذن الله»[١] نعم لمنى الرجل خاصة الغلظ والبياض، والخروج بدفق ودفع، فإن أراد من نفى مني المرأة انتفاء ذلك عنها أصاب، ومني المرأة خاصته الرقة، والصفرة، والسيلان بغير دفع. فإن نفى ذلك عنها أخطأ، وفي كل من الماءين قوة، فإذا انضم أحدهم إلى الآخر اكتسبا قوة ثالثة، وهي من أسباب تكوين الجنين.

كيف يتكون الجنين؟

اقتضت حكمة الخلاق العليم سبحانه أن جعل داخل الرحم خشنًا كالسفنج، وجعل فيه طلبًا للمني وقبولًا له، كطلب الأرض الشديدة العطش للماء وقبولها له، فجعله طالبًا حافظًا مشتاقًا إليه بالعطش، فذلك إذا ظفر به ضمه ولم يضيعه، بل يشتمل عليه أتم الاشتمال، وينضم أعظم انضمام؛ لئلا يفسده الهواء، فيتولى القوة والحرارة التي هناك بإذن الله ملك الرحم، فإذا اشتمل على المني ولم يقذف به إلى الخارج استدار على نفسه وصار كالكرة، وأخذ في الشدة إلى تمام ستة أيام، فإذا اشتد نقط فيه نقطة في الوسط، وهو موضع القلب، ونقطة في أعلاه، وهي نقطة الدماغ، وفي اليمين، وهي نقطة الكبد، ثم تتباعد تلك النقط ويظهر بينها خطوط حمر، إلى تمام ثلاثة أيام أخر، ثم تنفذ الدموية في الجميع بعد ستة أيام أخر، فيصير ذلك خمسة عشر يومًا، ويصير المجموع سبعة وعشرين يومًا، ثم ينفصل الرأس عن المنكبين، والأطراف عن الضلوع، والبطن عن الجبين، وذلك في تسعة أيام، فتصير ستة وثلاثين يومًا ثم يتم هذا التميز بحيث يظهر للحس ظهورًا في تمام أربعة أيام، فيصير المجموع أربعين يومًا تجمع خلقه، وهذا مطابق لقول النبي ﷺ في الحديث المتفق على صحته«**إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يومًا**»[٢] واكتفى النبي ﷺ بهذا الإجمال، وهذا يقتضي أن الله قد جمع فيها خلقها جمعًا خفيفًا، وذلك الخلق في ظهور خفي على التدرج، ثم يكون

(١) رواه مسلم برقم [٣١٥].

(٢) رواه البخاري برقم [٣٢٠٨]، ومسلم برقم [٢٦٤٣].

مضغة أربعين يومًا أخر، وذلك التخليق يتزايد شيئًا فشيئًا إلى أن يظهر للحس ظهورًا لا خفاء به كله، والروح لم تعلق به، فإنها تتعلق به في الأربعين الرابعة بعد مائة وعشرين يومًا، كما أخبر به الصادق، وذلك مما لا سبيل إلى معرفته إلا بالوحي، إذ ليس في الطبيعة ما يقتضيه، فلذلك حار فضلاء الأطباء وأذكياء الفلاسفة في ذلك، وقالوا: إن هذا مما لا سبيل إلى معرفته إلا بحسب الظن البعيد

قال: من وقف على نهاية كلامهم في ذلك دأب فيه حتى كل، وهو صاحب «**الطب الكبير**»، فذكر مناسبات خالية، ثم قال: وحقيقة العلم فيه عند الله تعالى، لا مطمع لأحد من الخلق في الوقوف عليه.

قلت: قد أوقفنا عليه الصادق المصدوق ﷺ الذي لا ينطق عن الهوي بما ثبت في الصحيحين «**إن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يومًا نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث إليه الملك، فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع: بكتب رزقه وأجله، وعمله، شقي أو سعيد**»[1].

انتقال النطفة إلى علقة، ثم إلى التشكيل الإنساني:

ولما تكامل للنطفة أربعون يومًا فاستحكم نضجها، وعقدتها حرارة الرحم استعدت لحالة هي أكمل من الأولى، وهي الدم الجامد الذي يشبه العلقة، ويقبل الصورة ويحفظها بانعقادها، وتماسك أجزاءها، فإذا تم لها أربعون استعدت لحال هي أكمل من الحالتين قبلها، وهي صيرورتها لحمًا أصلب من العلقة وأقوى وأحفظ للمخ المودع فيها، واللحم هو كسوتها، والرباطات تمسك أجزاءها وتشد بعضها بعضًا، والكبد الذي يأخذ صفو الغذاء فيرسله إلى سائر الأعضاء، وإلى الشعر والظفر، والأمعاء التي هي مجاري وصول الطعام والشراب إلى المعدة، والعروق التي هي مجاري منفذه وإيصاله

(١) «التبيان في أقسام القرآن» (٢٧٩-٢٨٢).

إلى سائر أجزاء البدن، والمعدة التي هي خزانة الطعام والشراب وحافظته لمستحقيه، والقلب الذي هو منبع الحرارة ومعدن الحياة والمستولي على مملكة البدن، والرئة التي تروح عن البدن وتفيده الهواء البارد الذي به حياته، واللسان الذي هو بريد القلب وترجمانه ورسوله، والسمع الذي هو صاحب أخباره، والبصر الذي هو طليعته ورائده والكاشف له عما يريد كشفه، والأعضاء التي هي خدمه وخوله، والرِّجلان تسعى في مصالحه، واليد تبطش في حوائجه، والأسنان تفصل قُوَتُه وتقطعه، والعروق توصله إلى أربابه، والذكر آلة نسله، وأنثياه خزانة مادة النسل، والكبد للغذاء وقسمته وهي في الحيوان بمنزلة شرش الشجر والنبات، تجذب الغذاء وترسله إلى جميع الأجزاء، وآلات الغذاء خدم له، والقلب للأرواح الذي به حياة الحيوان، وآلات النفس خدم له، والدماغ معدن الحس والتصور، والحواس خدم له، والأنثيان معدن التناسل، والذكر خدم لهما، وهذه الأعضاء هي رأس أعضاء البدن[1].

فارجع الآن إلى النطفة وتأمل حالها اولًا وما صارت إليه ثانيًا وأنه لو اجتمع الإنس والجن على أن يخلقوا لها سمعًا أو بصرًا أو عقلًا أو قدرة أو علمًا أو روحًا، بل عظمًا واحدًا من أصغر عظامها، بل عرقًا من أدق عروقها، بل شعرة واحدة؛ لعجزوا عن ذلك بل ذلك كله آثار صنع الله الذي أتقن كل شيء في قطرة من ماء مهين.

فمن هذا صنعه في قطرة ماء؛ فكيف صنعه في ملكوت السماوات، وعلوها، وسعتها، واستدارتها، وعظم خلقها، وحسن بنائها، وعجائب شمسها وقمرها وكواكبها ومقاديرها وأشكالها، وتفاوت مشارقها ومغاربها؟! فلا ذرة فيها تنفك عن حكمة، بل هي أحكم خلقًا وأتقن صنعًا وأجمع العجائب من بدن الإنسان، بل لا نسبة لجميع ما في الأرض إلى عجائب السماوات قال الله تعالى: ﴿ءَأَنتُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُۚ بَنَىٰهَا ۝٢٧ رَفَعَ سَمۡكَهَا فَسَوَّىٰهَا﴾ [النازعات: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

(١) «التبيان» (٣٠٣-٣٠٤)

وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ١٦٤].

فبدأ بذكر خلق السماوات، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[آل عمران: ١٩٠].

وهذا كثير في القرآن فالأرض والبحار والهواء وكل ما تحت السماوات- بالإضافة إلى السماوات- كقطرة في بحر، ولهذا قل أن تجيء سورة في القرآن إلا وفيها ذكرها، إما إخبارًا عن عظمها وسعتها، وإما إقسامًا بها وإما دعاء إلى النظر فيها، وإما إرشادًا للعباد أن يستدلوا بها على عظمة بانيها ورافعها، وإما استدلالًا منه سبحانه بخلقها على ما أخبر به من المعاد والقيامة وإما استدلالًا منه بربوبيته لها على وحدانيته وأنه الله الذي لا إله الا هو وإما استدلالًا منه بحسنها واستوائها والتئام أجزائها وعدم الفطور فيها على تمام حكمته وقدرته[1].

تكون الجنين من الماءين والشبه للغالب منهما.

فإن قيل: فهل يتكون الجنين من ماءين وواطئين؟ قيل؟ هذه مسألة شرعية كونية، والشرع فيها تابع للتكوين، وقد اختلف فيها شرعًا وقدرًا، فمنعت ذلك طائفة وأبته كل الإباء، وقالت: الماء إذا استقر في الرحم اشتمل عليه وانضم غاية الانضمام، بحيث لا يبقى فيه مقدار رسم رأس إبرة إلا انسد، فلا يمكن انفتاحه بعد ذلك لماء ثان، لا من الواطئ، ولا من غيره.

قالوا: وبهذا أجرى الله العادة: أن الولد لا يكون إلا لأب واحد كما لا تكون الأم إلا واحدة، وهذا هو مذهب الشافعي.

---

(١) «مفتاح دار السعادة» [٣٠٣-٣٠٤]

وقالت طائفة: بل يتخلق من ماءين فأكثر، **قالوا:** وانضمام الرحم واشتماله على الماء لا يمنع قبوله الماء الثاني، فإن الرحم أشوق شيء وأقبله للمني.

قالوا: ومثال ذلك كمثال المعدة، فإن الطعام إذا استقر فيها انضمت عليه غاية الانضمام، فإذا ورد عليها طعام فوقه انفتحت له، لشوقها إليه.

قالوا: وقد شهد بهذا القائف[١] بين يدى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه في ولد ادعاه اثنان، فنظر إليهما وإليه، **وقال:** ما أراهما إلا اشتركا فيه، فوافقه عمر وألحقه بهما، ووافقه على ذلك الإمام أحمد ومالك رضي الله عنهما.

قالوا: والحس يشهد بذلك، كما ترى في جراء[٢] الكلبة والسِّنَّوْر، تأتي بها مختلف الألوان لتعدد آبائها، وقد قال النبي: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يسقي ماءه زرع غيره**»[٣] يريد وطء الحامل من غير الواطئ، قال الإمام أحمد: الوطء يزيد في سمع الولد وبصره وهذا بعد انعقاده[٤].

والذي دل عليه العقل والنقل أن الجنين يخلق من الماءين جميعًا فالذكر يقذف ماءه في رحم الأنثى وكذلك هي تنزل ماءها إلى حيث ينتهي ماؤه فيلتقى الماآن على أمر قد قدره الله وشاءه فيخلق الولد بينهما جميعًا وأيهما غلب كان الشبه له، كما في صحيح البخاري عن حميد عن أنس قال: بلغ عبد الله بن سلام قدوم النبي صلى الله عليه وسلم فأتاه فقال: إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي قال: ما أول أشراط الساعة وما أول طعام يأكله أهل الجنة ومن أي شيء ينزع الولد إلى أبيه ومن أي شيء ينزع إلى أخواله فقال رسول الله

---

(١) القائف: الذي يتتبع الآثار ويعرفها ويعرف شبه الرجل بأخيه وأبيه.

(٢) الجراء: جمع جِرْو، وهو الصغير من ولد الكلب والأسد والسباع، والسِّنَّوْر هو القط.

(٣) رواه أبو دواد برقم[٢١٥٨]، والترمذي برقم[١١٣١] وحسنه الألباني في صحيح الجامع برقم [٦٥٠٧]، وصحيح أبى داود رقم [١٨٩٠].

(٤) السابق(٢٩٦-٢٩٧).

ﷺ «**أخبرني بهن آنفًا جبريل**» فقال عبد الله: ذاك عدو اليهود من الملائكة فقال رسول الله ﷺ: «**أما أول أشراط الساعة فنار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد الحوت، وأما الشبه في الولد فإن الرجل إذا غشي المرأة وسبقها ماؤه كان الشبه له وإن سبقت كان الشبه لها**» فقال: أشهد إنك رسول الله[1] وذكر الحديث.

وفي الصحيحين عن أم سلمة قالت: يا رسول الله، إن الله لا يستحي من الحق، هل على المرأة من غسل إذا هي احتلمت؟ قال: «**نعم إذا رأت الماء الأصفر**» فضحكت ام سلمة فقالت: أو تحتلم المرأة؟ فقال: رسول الله ﷺ: «**فبم يشبهها الولد**»[2]؟

فهذه الأحاديث الثلاثة تدل على أن الولد يخلق من الماءين وأن الإذكار والإيناث يكون بغلبة أحد الماءين وقهره للآخر وعلوه عليه، وأن الشبه يكون بالسبق فمن سبق ماؤه إلى الرحم كان الشبه له.

وهذه أمور ليس عند أهل الطبيعة ما يدل عليها ولا تعلم إلا بالوحي وليس في صناعتهم أيضًا ما ينافيها على أن في النفس من حديث ثوبان ما فيها وأنه يخاف أن لا يكون أحد رواته حفظه كما ينبغي وأن يكون السؤال إنما وقع فيه عن الشبه لا عن الإذكار والإيناث كما سأل عنه عبد الله بن سلام ولذلك لم يخرجه البخاري.

سبب الإذكار والإيناث:

فإن قيل: فما سبب الإذكار والإيناث؟ **قيل**: الذي نختاره أن سببه مشيئة الرب الفاعل باختياره، وليس بسبب طبيعي، وكل ما ذكر أصحاب الطبائع من الأسباب فمنتقض مثل حرارة الرجل ورطوبته، **قالوا**: وفساد المزاج أيضًا يوجب إيلاد الإناث،

---

(١) رواه البخاري برقم [٣٩٣٨].

(٢) رواه البخاري برقم [٣٣٢٨].

واستقامته توجب الإذكار، وهذا تخليط وهذيان فليس للإذكار والإيناث إلا قول الله لملك الأرحام، وقد استأذن «**يارب ذكر، يارب أنثى، يارب شقي أم سعيد؟ فما الرزق؟ فما الأجل**» والإذكار والإيناث قرين السعادة، والشقاوة والرزق، والأجل.

فإذا قيل: فتلك أيضًا بأسباب؟ **قلنا**: نعم، ولكن بأسباب بعد الولادة، ولا سبب للإذكار والإيناث قبل الولادة.

فإن قيل: فما تصنعون بحديث ثوبان الذي رواه مسلم في صحيحه أن يهوديًا سأل النبي ﷺ عن الولد، فقال «**ماء الرجل أبيض وماء المرأة أصفر فإذا اجتمعا فعلا مني الرجل مني المرأة أذكر بإذن الله وإن علا مني المرأة مني الرجل آنث بإذن الله**»[(١)] قال: اليهودي لقد صدقت، وإنك لنبي، قيل: هذا الحديث تفرد به مسلم في صحيحه، وقد تكلم فيه بعضهم وقال: الظاهر أن الحديث وهم فيه بعض الرواة، وإنما كان السؤال عن الشبه وهو الذي سأل عنه عبد الله بن سلام في الحديث المتفق على صحته فأجابه بسبق الماء، فإن الشبه يكون للسابق، فلعل بعض الرواة انقلب عليه شبه الولد بالمرأة بكونه آنث، وشبهه بالولد بكونه ذكرًا، لا سيما والشبه التام إنما هو بذلك.

وقالت طائفة: الحديث صحيح لا مطعن في سنده، ولا منافاه بينه وبين حديث عبد الله بن سلام، وليست الواقعة واحدة، بل هما قضيتان، ورواية كل منهما غير رواية الأخرى، وفي حديث ثوبان قضية ضبطت وحفظت **قال ثوبان**: كنت قائمًا عند رسول الله ﷺ فجاء حبر من أحبار اليهود، فقال: السلام عليك يا محمد، فدفعته دفعة كاد يصرع منها، **فقال**: لم تدفعني؟ **فقلت**: ألا تقول: يا رسول الله، فقال اليهودي: إنما ندعوه باسمه الذي سماه به أهله، فقال رسول الله ﷺ: «**إن اسمي محمد الذي سماني به أهلي**» قال اليهودي: جئت أسالك، فقال: رسول الله ﷺ «**أينفعك شيء إن**

(١) رواه مسلم برقم [٣١٥].

حدثتك؟» قال أسمع بأذني، فنكت رسول الله ﷺ بعود معه، فقال: سل **فقال اليهودي:** أين يكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات، فقال رسول الله ﷺ : **«هم في الظلمة دون الجسر» قال:** فمن أول الناس إجازة؟ قال: فقراء المهاجرين، قال اليهودي: فما تحفتهم حين يدخلون الجنة؟ فقال: **«زيادة كبد الحوت»** قال: فما غذاؤهم على إثرها؟ قال: **«ينحر لهم ثور الجنة الذي يأكل من أطرافها»** قال: فما شرابهم عليه؟ قال: **«من عين تسمى سلسبيلا»** قال: صدقت، وجئت أسالك عن شيء لا يعلمه إلا نبي أو رجل أو رجلان قال: **«أينفعك إن حدثتك؟»** قال: أسمع بأذني قال: جئت أسألك عن الولد، قال: **«ماء الرجل أبيض وماء المرأة أصفر فإذا اجتمعا، فعلا مني الرجل مني المرأة أَذْكَرَ بإذن الله، وإن علا مني المرأة مني الرجل آنث بإذن الله»** قال اليهودي: **«لقد صدقت وإنك لنبي، ثم انصرف فقال رسول الله** ﷺ : **لقد سألني عن هذا الذي سألني عنه ومالي علم به حتى أتاني الله به»**[1] وأما حديث عبد الله بن سلام رضي الله عنه ، ففي صحيح البخاري عن حميد عن أنس قال: بلغ عبد الله بن سلام قدوم النبي ﷺ فأتاه، فقال: إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي قال: ما أول أشراط الساعة؟ وما أول طعام يأكله أهل الجنة؟ ومن أي شيء ينزع الولد إلى أبيه، ومن أي شيء ينزع إلى أخواله فقال رسول الله ﷺ : **«أخبرني بهن آنفًا جبريل»** فقال: عبد الله ذاك عدو اليهود من الملائكة، فقال رسول الله ﷺ : **«أما أول أشراط الساعة فنار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب، واما اول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد الحوت، وأما الشبه في الولد فإن الرجل إذا غشي المرأة وسبقها ماؤه كان الشبه له، وإن سبقت كان الشبه لها»**[2] قال أشهد أنك رسول الله، وذكر الحديث.

---

(١) نفس الحديث السابق.

(٢) سبق تخريجه قريبًا جدًا.

فتضمن الحديثان أمرين ترتب عليهما الأثران معًا، وأيهما انفرد ترتب عليه أثره، فإذا سبق ماء الرجل وعلا أذكر وكان الشبه له، وإن سبق ماء المرأة وعلا آنث، وكان الشبه لها وإن هذا كله فهذا جزء سبب ليس بموجب، والسبب الموجب مشيئة الله فقد يسبب بضد السبب، وقد يرتب عليه ضد مقتضاه ولا يكون في ذلك مخالفة لحكمته، كما لا يكون تعجيزًا لقدرته، وقد أشار في الحديث إلى هذا بقوله أذكر وآنث بإذن الله وقد قال تعالى: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾[الشورى:٤٩-٥٠]. فأخبر سبحانه أن ذلك عائد إلى مشيئته وأنه قد يهب الذكور فقط، والإناث فقط، وقد يجمع للوالدين بين النوعين معًا، وقد يخلصها معًا، وأن ذلك كما هو راجع إلى مشيئته فهو متعلق بعلمه وقدرته، وقد وهب الله آدم الذكور والإناث، وإسرائيل[1] الذكور دون الإناث، ومحمدًا ﷺ الإناث دون الذكور، سوي ولده إبراهيم[2]، وقال سليمان عليه السلام: «**لأطوفن الليلة على سبعين أمرأة، تأتي كل امرأة منهن بغلام يقاتل في سبيل الله، فطاف عليهن فلم تلد منهن إلا امرأة واحدة، جاءت بشق ولد**» قال النبي ﷺ: «**والذي نفسي بيده، لو قال: إن شاء الله، لجاهدوا في سبيل الله فرسانًا أجمعون**»[3] فدل على أن مجرد الوطء ليس بسبب تام، وإن كان مدخل في السببة، وأن السبب التام مشيئة الله وحده، فهو رب الأسباب المتصرف فيها كيف شاء، بإعطائها السببية إذا شاء، ومنعها إياها إذا شاء، ويترتب ضد مقتضاها عليها إذا شاء، والأسباب هي مجاري الشرع والقدر، فعليها يجري أمر الله الكوني والديني.

---

(١) إسرائيل هو نبي اله يعقوب عليه السلام.

(٢) وكذلك القاسم وبه كان يكنى ﷺ ولد قبل النبوة وتوفي وهو ابن سنتين وكذلك عبد الله وكان يسمى الطيب والطاهر وكلاهما من خديجة أما إبراهيم فمن مارية القبطية ومعنى القبطية أي المصرية.

(٣) رواه البخاري برقم [٣٤٢٤]، ومسلم برقم [١٦٥٤].

فإن قيل: ظهر أن الولد مخلوق من الماءين جميعًا، فهل يخلق منهما على حد سواء، أم يكون بعض الولد من ماء الأب، وبعضه من ماء الأم؟ قيل: قد بين النبي ﷺ هذه المسألة بأوضح البيان، فقال الإمام أحمد في مسنده: حدثنا حسين ابن الحسين حدثنا أبو كريب، عن عطاء بن السائب عن القاسم بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن عبد الله بن مسعود قال: مر يهودي برسول الله ﷺ وهو يحدث أصحابه، فقالت قريش: يا يهودي إن هذا يزعم أنه نبي، فقال: لأسألنه عن شيء لا يعلمه إلا نبي، فجاء حتى جلس، ثم قال: يا محمد مم يخلق الإنسان؟ فقال: «**من كلٍّ يخلق، من نطفة الرجل، ومن نطفة المرأة، فأما نطفة الرجل فنطفة غليظة، منها العظم والعصب، وأما نطفة المرأة فنطفة رقيقة، منها اللحم والدم**» فقام اليهودي فقال: هكذا يقول من قبلك[(١)(٢)].

أسباب حدوث ظاهرة التوأم:

فإن قيل: فهل يمكن أن يخلق من الماء ولدان في بطن واحد؟ قيل: هذه مسألة التوأم، وهو ممكن، بل واقع، وله أسباب:

أحدها- كثرة المني، فيقيض إلى بطن الرحم دفعات، والرحم يعرض له عند الحركة الجارية للمني حركات اختلاجية مختلفة، فربما اتفق أن كان الجاذب للدفعة الأولي من المني أحد جانبيه، وللثانية الجانب الآخر.

ومنها: أن بيت الأولاد في الرحم فيه تجاويف، فيكون المني كثيرًا، فيغفل أحدها عن فضلة يشتمل عليها التجويف **الثاني**، وهكذا **الثالث**، قال أرسطو: وقد يعيش للمرأة خمسة أولاد في بطن واحده، وحُكي عن امرأة أنها وضعت في أربع بطون عشرين ولدًا، قال صاحب «القانون»: سمعت بجرجان أن امرأة أسقطت كيسًا فيه سبعون صورة

(١) رواه أحمد في المسند(٧/ ٤٣٧) وقال الأرناؤوط: إسناده ضعيف.

(٢) «التبيان في أقسام القرآن» (٢٨٣-٢٨٧).

صغيرة جدًا، قال أرسطو: وإذا توأمت بذكر وأنثى فقلما تسلم الوالدة والمولود، وإذا توأمت أو بذكرين أو أنثتين فتسلم كثيرًا، قال: والمرأة قد تحبل على الحبل، ولكن يهلك الأول في الأكثر، فقد أسقطت امرأة واحدة اثني عشر جنينًا، حملًا على حمل، وأما إذا كان الحمل واحدًا أو بعد وضع الأول فقد يعيشان، والله أعلم.

لماذا يمتنع الحمل أثناء الحيض؟

فإن قيل : فما السبب المانع للحمل من الحيض غالبًا؟ قال الإمام أحمد وأبو حنيفة: إن ما نراه من الدم يكون دم فساد لا حيض، والشافعي وإن قال إنه دم حيض – وهو إحدى الروايتين عن عائشة – فلا ريب أنه نادر، بالإضافة إلى الأغلب.

قيل : دم الطمث[1] ينقسم ثلاثة أقسام : قسم ينصرف إلى غذاء الجنين، وقسم يصعد إلى البدن وقسم يحبس إلى وقت الوضع، فيخرج مع الولد، وهو دم النفاس، وربما كانت مادة الدم قوية – وهو كثير فيخرج بعضه لقوته وكثرته والراجح من الدليل أنه حيض، حكمه حكمه، إذا ليس هناك دليل عقلي ولا شرعي يمنع من كونه حيضًا، واستيفاء الأدلة من الجانبين قد ذكرناه في مواضع أخر، والله أعلم.

سبب ظاهرة الوحم أثناء الحمل:

فإن قيل: فما السبب في أن النساء الحبالى يشتقن في الشهر الثاني والثالث إلى تناول الأشياء الغريبة التي لا يعتد بها طبيًا ؟

قيل: إن دم الطمث لما احتبس فيهن بحكمة قدرها الله وهي أن صرفه غذاء للولد، ومقدار ما يحتاج إليه يسير، فتدفعه الطبيعة الصحيحة إلى فم المعدة فيحدث لهن شهوة تلك الأشياء الغريبة.

---

(١) هو دم الحيض.

هيئة الجنين في الرحم:

فإن قيل: فكيف وضع الجنين في بطن أمه : قائمًا أو قاعدًا أو مضطجعًا ؟

قيل: هو معتمد بوجهه على رجليه وبراحتيه على ركبتيه، ورجلاه مضمومتان إلى قدميه ووجهه إلى ظهر أمه، وهذا من العناية الإلهية أن أجلسه هذه الجلسة في المكان الضيق في الرحم على هذا الشكل، وأيضًا فلو كان رأسه إلى أسفل لوقع ثقل الأعضاء الخسيسة على الأعضاء الشريفة، وأدى ذلك إلى تلفه، ولأنه عند محاولة الخروج إذا انقلب أعانته على الخروج، فإنه إذا خرج أول ما يخرج منه رأسه، لأن الرأس إذا خرج أولًا كان خروج سائر الأعضاء بعده سهلا، ولو خرج علي غير هذا الوجه لكان فيه تعويق وعسر، فإن الرجلين لو خرجتا أولًا انعاق خروج الباقي، وإن خرجت الرجل الواحدة أولًا انعاق عند الثانية، وإن خرجت معًا انعاق عند اليدين، وإن خرجت الرجلان واليدان انعاق عند الرأس، فكان يلتوي إلى الخلف وتلتوي السرة إلى العنق فيتألم الرحم، ويصعب الخروج ويؤدي إلى مرضه أو تلفه.

السبب في سقوط الأجنة قبل التمام:

فإن قيل: فما سبب الإجهاض الذي يسمونه الطرح قبل كمال الولادة ؟

قيل: الجنين في البطن بمنزلة الثمرة في الشجرة وكل منهما له اتصاله القوي بالأم، ولهذا يصعب قطع الثمرة قبل كمالها من الشجرة وتحتاج إلى قوة، فإذا بلغت الثمرة نهايتها سهل قطعها، وربما سقطت بنفسها، وذلك لأن تلك الرباطات والعروق التي تمدها من الشجرة كانت في غاية القوة والغذاء فلما رجع ذلك الغذاء إلى تلك الشجرة ضعفت تلك الرطوبات والمجاري، وساعدها ثقل الثمرة، فسهل أخذها وكذلك الأمر في الجنين ،فإنه ما دام في البطن قبل كماله واستحكامه، فإن رطوباته وأغشيته تكون مانعة له من السقوط، فإذا تم وكمل ضعفت تلك الرطوبات، وانتهكت الأغشية، واجتمعت تلك الرطوبات

المزلقة فسقط الجنين، هذا هو الأمر الطبيعي الجاري على استقامة الطبيعة وسلامتها، وأما السقوط قبل ذلك فلفساد في الجنين، ولفساد في طبيعة الأم، أو ضعفت الطبيعة، كما تسقط الثمرة قبل إدراكها لفساد يعرض، أو لضعف الأصل أو لفساد يعرض من خارج، فإسقاط الجنين لسبب من هذه الأسباب الثلاثة، فالآفات التي تصيب الأجنة بمنزلة الآفات التي تصيب الثمار.

ولادة الأجنة من دلائل قدرة الله:

فإن قيل: فكيف يخرج من الرحم -مع ضيقه- ما هو أكبر منه بأضعاف مضاعفة؟

قيل: هذا من أعظم الأدلة على عناية الرب تعالى وقدرته ومشيئته، فإن الرحم لابد أن ينفتح الانفتاح العظيم جدًا قال غير واحد من العقلاء: ولابد من انفصال يعرض للمفاصل العظيمة، ثم تلتئم بسرعة أسرع من لمح البصر، وقد اعترف فضلاء الأطباء وحذاقهم بذلك، وقالوا: لا يكون ذلك إلا بعناية إلهية وتدبير تعجز العقول عن إدراكه وتقر للخلاق بكمال الربوبية والقدرة.

لماذا يبكي الطفل عند ولادته؟

فإن قيل: فما السبب في بكاء الصبي حالة خروجه إلى هذه الدار؟

قيل: ههنا سببان: سبب باطن أخبر به الصادق المصدوق لا يعرفه الأطباء وسبب ظاهر، فأما السبب الباطن: فإن الله سبحانه اقتضت حكمته أن وكل بكل واحد من ولد آدم شيطانًا، فشيطان المولود قد خنس ينتظر خروجه ليقارنه ويتوكل به، فإذا انفصل استقبله الشيطان وطعنه في خاصرته، تحرقًا عليه وتغيظًا واستقبالًا له بالعداوة التي كانت بين الأبوين قديمًا فيبكي المولود من تلك الطعنة ولو آمن زنادقة الأطباء والطبائعيين بالله ورسوله لم يجدوا عندهم ما يبطل ذلك ولا يرده وقد ثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه: قال قال صلى الله عليه وسلم: «**صياح المولود حين**

يقع نزغة من الشيطان»[1] وفي الصحيحين من حديثه أيضًا رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «**ما من مولود يولد إلا نخسه الشيطان، فيستهل صارخًا من مس الشيطان إياه**»[2] وفي لفظ آخر «**كل بني آدم يمسه الشيطان يوم ولادته إلا مريم وابنها**» وفي لفظ البخاري «**كل بني آدم يطعن الشيطان في جنبه بأصبعه حين يولد، غير عيسى ابن مريم، ذهب يطعن فطعن في الحجاب**» والسبب الظاهر الذي لا تخبر الرسل بأمثاله لرخصه عند الناس، ومعرفتهم له من غيرهم، هو مفارقته المألوف والعادة التي كان فيها إلى أمر غريب، فإنه ينتقل من جسم حار إلى هواء بارد، ومكان لم يألفه، فيستوحش من مفارقته وطنه، ومألفه، وعند أرباب الإشارات أن بكاءه إرهاص بين يدي ما يلاقيه من الشدائد والآلام والمخاوف، وأنشد في ذلك:

وَيَبْكِي بِهَا الْمَولُودُ حَتَّى كَأَنَّهُ ... بِكُلِّ الَّذِي يَلْقَاهُ فِيهَا يُهَدَّدُ
وَإِلَّا فَمَا يَبْكِيهِ فِيهَا وَإِنَّهَا ... لَأَوْسَعُ مِمَّا كَانَ فِيهِ وَأَرْغَدُ؟

ولهم نظير هذه الإشارة في قبض كفه عند خروجه إلى الدنيا، وفي فتحها عند خروجه منها، وهو الإشارة إلى أنه خرج إليها مركبا على الحرص والطمع، وفارقها صفر اليدين منها، وأنشد في ذلك:

وَفِي قَبْضِ كَفِّ الْمَرءِ عِنْدِ وِلَادَةٍ ... دَلِيلٌ عَلَى الْحِرْصِ الَّذِي هُوَ مَالِكُهُ
وَفِي فَتْحِهَا عِنْدَ الممَاتِ إِشَارَةٌ ... إِلَى فُرْقَةِ الْمَالِ الَّذِي هُوَ تَارِكُهُ

ولهم نظير هذه الإشارة في بكاء الطفل، وضحك من حوله: أن الأمر سيبدل ويصير إلى ما يبكي من حوله عند موته، كما ضحكوا عند ولادته وأنشد في ذلك:

وَلَدَتْكَ إِذْ وَلَدَتْكَ أُمُّكَ بَاكِيًا ... وَالنَّاسُ حَوْلَكَ يَضْحَكُونَ سُرُورًا
فَاعْمَلْ لَعَلَّكَ أَنْ تَكُونَ إِذَا بَكَوْا ... فِي يَوْمِ مَوْتِكَ ضَاحِكًا مَسْرُورًا

(١) رواهمسلم برقم [٢٣٦٧].

(٢) رواه البخاري برقم [٣٢٨٦]، ومسلم برقم [٢٣٦٦].

ونظير هذه الإشارة أيضًا قولهم: إن المولود حين ينفصل يمد يده إلى فيه، إشارة إلى تعجيل نزوله عند القدوم عليه بأنه ضيف، من تمام إكرامه تعجيل قراه، فأشار بلسان الحال إلى ترك التأخير وربما مص اصبعه إشارة إلى نهاية فقره، وأنه بلغ منه إلى مص الأصابع، ومنه قول الناس، لمن بلغ به الفقر غايته، فهو يمص أصابعه، وأنشد في ذلك:

وَيَهْوِي إِلى فِيهِ يَمَصُّ بَنَانَهُ ... يُطَالِبُ بِالتَّعْجِيلِ خَوْفَ التَّشَاغُلِ

وَيُعْلِمُهُمْ أَنِّي فَقِيرٌ وَلَيْسِ لِي ... مِنَ الْقُوتِ شَيْءٌ غَيْرَ مَصِّ الْأَنَامِلِ

ونظير هذه الإشارة أنه يحدث بالعجب ممن يظهر من الحدث:

وَيَحْدُثُ بَيْنَ الْحَاضِرِينَ إِشَارَةٌ ... إِلى أَنَّهُ مِنْ حَادِثٍ لَيْسَ يُعْصَمُ

يَقُولُ: وَعِنْدِي بَعْدَها أَخَواتُهَا ... وَمَا مِنْكُمْ إِلَّا وَذُو الْعَرْشِ أَرْحَمُ

ونظير هذه الإشارة أنه يضحك بعد الأربعين، وذلك عندما يتعقل نفسه الناطقة ويدركها، وفي ذلك قصاص من البكاء الذي أصابه عند ولادته، وتأخر بعده لكي يتأسى العبد إذا أصابته شدة، فالفرج يأتي في إثرها:

وَيَضْحَكُ بَعْدَ الْأَرْبَعِينَ إِشَارَةً ... إِلى فَرَجٍ وَافَاهُ بَعْدَ الشَّدَائِدِ

يَقُولُ: هِيَ الدُّنْيَا، فَتُبْكِيكَ مَرَّةً ... وَتَضْحَكُ أُخْرى، فَاصْطَبِرْ لِلْعَوائِدِ

قالوا: ويرى الأماني بعد ستين يومًا من ولادته ولكنه ينساها لضعف القوة الحافظة وكثرة الرطوبات، وفي ذلك لطف به أيضًا لضعف قلبه عن التفكر فيما يراه:

وَيَرَى بِعَيْنِ الْقَلْبِ - إِذْ يَأْتِي لَهُ ... سِتونَ يَوْمًا - رُؤْيَةُ الْأَحْلَامِ

لَكِنَّهُ يَنْسَاهُ بَعْدُ لِضَعْفِهِ ... عَنْ ضَبْطِهِ فِي يَقَظَةٍ وَمَنَامُ[1]

(١) «التبيان في أقسام القرآن» (٢٩٨-٣٠٣).

أقل مدة للحمل:

وأما أقل مدة الحمل فقد تظاهرت الشريعة والطبيعة على أنها ستة أشهر، قال تعالى: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحقاف:١٥]. وقال تعالى: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ﴾ [البقرة:٢٣٣]. وقال جالينوس: كنت شديد الفحص عن مقادير أزمنة الحمل، فرأيت امرأة واحدة ولدت في مائة وأربع وثمانين ليلة، وزعم صاحب الشفاء أنه شاهد ذلك، وأما أكثره فقال في الشفاء: بلغني من حيث وثقت أن امرأة وضعت بعد الرابع من رأس الحمل ولدًا قد نبتت أسنانه وعاش[1].

الحكمة في كثرة بكاء الأطفال:

ثم تأمل حكمة الله تعالى في كثرة بكاء الأطفال ومالهم فيه من المنفعة فإن الأطباء والطبائعيين شهدوا منفعة ذلك وحكمته وقالوا: في أدمغة الأطفال رطوبة لو بقيت في أدمغتهم لأحدثت أحداثًا عظيمة فالبكاء يسيل ذلك ويحدره من أدمغتهم فتقوى أدمغتهم وتصح.

وأيضًا فإن البكاء والعياط[2] يوسع عليه مجاري التنفس ويفتح العروق ويصلبها ويقوي لأعصاب وكم للطفل من منفعة ومصلحة فيما تسمعه من بكائه وصراخه فإذا كانت هذه الحكمة في البكاء الذي سببه ورود الألم والمؤذي وأنت لا تعرفها ولا تكاد تخطر ببالك فهكذا إيلام الأطفال فيه وفي أسبابه وعواقبه الحميدة من الحكم ما

---

(١) السابق [٢٨٣] وقد أفتى أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب بأن أقل مدة للحمل ستة أشهر وأسقط بذلك الحد عن امرأة كان قد رفع أمرها إلى عمر رضي الله عنه فاستدل علي بن أبي طالب رضي الله عنه بقول الله عز وجل ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ مع قول الله عز وجل: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ وقام بطرح الحولين من الثلاثين شهرًا فكان الناتج ستة أشهر وبهذا الفهم العالي والاستباط الدقيق أسقط عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما الحد عن تلك المرأة التي كانت قد تزوجت وولدت بع الستة أشهر.

(٢) العياط هو الصياح بالبكاء.

قد خفي على أكثر الناس واضطرب عليهم والكلام في حكمه واضطراب الأرشية[١] وملكوا في هذا الباب مسالك.

فاعد الآن النظر فيك وفي نفسك مرة ثانية، من الذي دبرك بألطف التدبير وأنت جنين في بطن أمك في موضع لا يد تنالك، ولا بصر يدركك، ولا حيلة لك في التماس الغذاء ولا في دفع الضرر عنك؟ فمن الذي أجرى إليك من دم الأم ما يغذوك كما يغذو الماء النبات ، وقلب ذلك الدم لبنًا ولم يزل يغذيك به في أضيق المواضع وأبعدها من حيلة التكسب والطلب حتى إذا كمل خلقك واستحكم وقوى أديمك على مباشرة الهواء وبصرك على ملاقاة الضياء وصلبت عظامك على مباشرة الأيدي والتقلب على الغبراء: هاج الطلق بأمك فازعجك إلى الخروج أيما ازعاج إلى عالم الابتلاء، فركضك الرحم ركضة من مكانك كأنه لم يضمك قط ولم يشتمل عليك؟!

فيا بُعد ما بين ذلك القبول والاشتمال حين وضعت نطفة، وبين هذا الدفع والطرد والإخراج وكان مبتهجًا بحملك فصار يستغيث ويعج إلى ربك من ثقلك.

فمن الذي فتح لك بابه حتى ولجت، ثم ضمه عليك حتى حفظت وكملت، ثم فتح لك ذلك الباب ووسعه حتى خرجت منه كلمح البصر، لم يخنقك ضيقه ولم تحبسك صعوبة طريقك فيه؟! فلو تأملت حالك في دخولك من ذلك الباب وخروجك منه لذهب بك العجب كل مذهب.

فمن الذي أوحى إليه أن يتضايق عليك وأنت نطفة حتى لاتفسد هناك؟ثم أوحى إليه أن يتسع لك وينفسح حتى تخرج منه سليمًا إلى أن خرجت فريدًا وحيدًا ضعيفًا لا قشرة ولا لباس ولا متاع ولا مال أحوج خلق الله وأضعفهم وأفقرهم، فصرف ذلك اللبن الذي كنت تتغذى به في بطن أمك إلى خزانتين معلقتين على صدرها تحمل غذاءك

(١) أي اضطراب الخلاف والخصومة.

على صدرها كما حملتك في بطنها ثم ساقه إلى ذينك الخزانتين ألطف سوق على مجار وطرق قد تهيأت له، فلا يزال واقفًا في طرقه ومجاريه حتى يستوفي ما في الخزانة فيجري وينساق إليك فهو بئر لا تنقطع مادتها ولا تنسد طرقها يسوقها إليك في طرق لا يهتدي إليها الطواف ولا يسلكها الرجال؟! فمن رققه لك وصفَّاه، وأطاب طعمه وحسن لونه، وأحكم طبخه أعدل إحكام لا بالحار المؤذي ولا بالبارد الردي ولا المر ولا المالح ولا الكريه الرائحة؟! بل قلبه إلى ضرب آخر من التغذية والمنفعة خلاف ما كان في البطن فوافاك في أشد أوقات الحاجة إليه، على حين ظمأ شديد وجوع مفرط جمع لك فيه بين الشراب والغذاء، فحين تولد قد تلمظت وحركت شفتيك للرضاع فتجد الثدي المعلق كالإداوة قد تدلى إليك وأقبل بدره عليك، ثم جعل في رأسه تلك الحلمة التي هي بمقدار صغر فمك فلا يضيق عنها ولا تتعب بالتقامها، ثم نقب لك في رأسها نقبًا لطيفًا بحسب احتمالك ولم يوسعه فتختنق باللبن، ولم يضيقه فتمصه بكلفة، بل جعله بقدر اقتضته حكمته ومصلحتك.

فمن عطف عليك قلب الأم ووضع فيه الحنان العجيب والرحمة الباهرة حتى تكون في أهنأ ما يكون من شأنها وراحتها ومقيلها؟ فإذا أحست منك بأدنى صوت أو بكاء قامت إليك وآثرتك على نفسها على عدد الأنفس منقادة إليك بغير قائد ولا سائق إلا قائد الرحمة وسائق الحنان تود لو أن كل ما يؤلمك بجسمها وأنه لم يطرقك منه شيء، وأن حياتها تزاد في حياتك فمن الذي وضع ذلك في قلبها حتى إذا قوى بدنك واتسعت أمعاؤك، وخشنت عظامك، واحتجت إلى غذاء أصلب من غذائك ليشتد به عظمك ويقوى عليه لحمك. وضع في فيك آله القطع والطحن فنصب لك أسنانًا تقطع بها الطعام وطواحين تطحنه بها، فمن الذي حبسها عنك أيام رضاعك رحمة بأمك ولطفًا بها ثم أعطاكها أيام أكلك رحمة بك وإحسانًا إليك ولطفًا بك؟!

فلو أنك خرجت من البطن ذا سن وناب وناجذ وضرس كيف كان حال أمك بك؟ ولو أنك منعتها وقت الحاجة إليها كيف كان حالك بهذه الأطعمة التي لا تسيغها إلا بعد تقطيعها وطحنها وكلما ازددت قوة وحاجة إلى الأسنان في أكل المطاعم المختلفة زيد لك في تلك الآلات حتى تنتهي إلى النواجذ فتطيق نهش اللحم وقطع الخبز وكسر الصلب، ثم إذا ازددت قوّة زيد لك فيها حتى تنتهي إلى الطواحين التي هي آخر الأضراس؟

فمن الذي ساعدك بهذه الآلات وأنجدك بها ومكنك بها من ضروب الغذاء؟

ثم إنه اقتضت حكمته أن أخرجك من بطن أمك لا تعلم شيئًا، بل غبيًا لا عقل ولا فهم ولا علم وذلك من رحمته بك، فإنك على ضعفك لا تحتمل العقل والفهم والمعرفة، بل كنت تتمزق وتتصدع، بل جعل ذلك ينتقل فيك بالتدريج شيئًا فشيئًا فلا يصادفك ذلك وهلةً واحدةً، بل يصادفك يسيرًا يسيرًا حتى يتكامل فيك.

واعتبر ذلك بأن الطفل إذا سبي صغيرًا من بلده ومن بين أبويه ولا عقل له فإنه لا يؤلمه ذلك وكلما كان أقرب إلى العقل كان أشق عليه وأصعب حتى إذا كان عاقلًا، فلا تراه إلا كالواله الحيران.

ثم لو ولدت عاقلًا فهيمًا كحالك في كبرك تنغصت عليك حياتك أعظم تنغيص وتنكدت أعظم تنكيد لأنك ترى نفسك محمولًا رضيعًا معصبًا بالخرق مربطًا بالقمط مسجونًا في المهد عاجزًا ضعيفًا عما يحاوله الكبير فكيف كان يكون عيشك مع تعلقك التام في هذه الحالة؟!

ثم لم يكن يوجد لك من الحلاوة واللطافة والوقع في القلب والرحمة بك ما يوجد للمولود الطفل، بل تكون أنكد خلق الله وأثقلهم وأعنتهم وأكثرهم فضولًا وكان دخولك هذا العالم وأنت غبي لا تعقل شيئًا ولا تعلم ما فيه أهله محض الحكمة والرحمة بك والتدبير فتلقى الأشياء بذهن ضعيف ومعرفة ناقصة ثم لا يزال يتزايد فيك العقل

والمعرفة شيئًا فشيئًا حتى تألف الأشياء وتتمرن عليها، وتخرج من التأمل لها والحيرة فيها وتستقبلها بحسن التصرف فيها والتدبير لها والإتقان لها.

وفي ذلك وجوه أخر من الحكمة غير ما ذكرناه فمن هذا الذي هو قيم عليك بالمرصاد يرصدك حتى يوافيك بكل شيء من المنافع والمآرب والآلات في وقت حاجتك لا يقدمها عن وقتها ولا يؤخرها عنه؟

ثم إنه أعطاك الأظفار وقت حاجتك إليها لمنافع شتى، فإنها تعين الأصابع وتقويها.

فإن أكثر العمل لما كان برؤوس الأصابع وعليها الاعتماد أعينت بالأظافر قوة لها مع ما فيها من منفعة حك الجسم وقشط الأذى الذي لا يخرج باللحم عنه إلى غير ذلك من فوائدها.

ثم جملك بالشعر على الرأس زينة ووقاية وصيانة من الحر والبرد إذ هو مجمع الحواس ومعدن الفكر والذكر وثمرة العقل تنتهي إليه.

ثم خص الذكر بأن جمل وجهه باللحية وتوابعها وقارًا وهيبةً له وجمالًا وفصلًا له عن سن الصبا وفرقًا بينه وبين الإناث وبقيت الأنثى على حالها لما خلقت له من استمتاع الذكر بها فبقي وجهها على حاله ونضارته ليكون أهيج للرجل على الشهوة وأكمل للذة الاستمتاع فالماء واحد، والجوهر واحد، والوعاء واحد واللقاح واحد فمن الذي أعطى الذكر الذكورية والأنثى الأنوثية؟

تأملات رائعة في خلق الإنسان:

استقبل الآن النظر في نفسك وانظر إلى المبدأ الأول وهو النطفة التي هي قطرة مهينة ضعيفة، لو تركت ساعة لبطلت وفسدت كيف أخرجها رب الأرباب من بين الصلب والترائب؟ وكيف أوقع المحبة والألفة بين الذكور والإناث، ثم قادهما بسلسلة المحبة والشهوة إلى الجماع، ثم استخرج النطفة من الذكر بحركة الوقاع من أعماق العروق،

وجمعها في الرحم في قرار مكين لا تناله يد، ولا تطلع عليه شمس، ولا يصيبه هواء، ثم صرف تلك النطفة طورًا بعد طور وطبقًا بعد طبق وغذاها بماء الحيض.

وكيف جعل سبحانه النطفة - وهي بيضاء مشرقة - علقة حمراء ثم جعلها مضغة، ثم قسم أجزاء المضغة إلى العظام، والأعصاب، والعروق، والأوتار، واللحم، في داخل الرحم في الظلمات الثلاث ولو كشف لك الغطاء لرأيت التخطيط والتصوير يظهر في تلك النطفة شيئًا بعد شيء، من غير أن ترى المصور ولا آلته ولا قلمه، فهل رأيت مصورا لا تحس آلته ولا تلاقيها ؟

ثم تأمل هذه القبة العظيمة[1] التي قد ركبت على المنكبين، وما أودع فيها من العجائب، وما ركب فيها من الخزائن، وما أودع في تلك الخزائن من المنافع، وما اشتملت عليه هذه القبة من العظام المختلفة الأشكال، والصفات والمنافع، ومن الرطوبات، والأعصاب، والطرق، والمجاري، والدماغ، والمنافذ والقوى الباطنة من الذِّكْر والفِكْر والتخيل، وقوة الحفظ، ففيه القوة المفكرة، والذاكرة والمخيلة، والحافظة، وهذه القوى مودعة في خزانتها، مسخرة لمصالحها، يستعملها ويستخدمها كيف أراد.

فتأمل كيف دور سبحانه الرأس، وشق سمعه وبصره وأنفه وفمه؟ وكيف ركب كرته في بطن الأم من ثلاثة وعشرين عظمًا، وخلق تلك العظام على كيفيات مختلفة.

وتأمل كيف انقلبت تلك النطفة اللينة الضعيفة إلى العظام الصلبة الشديدة؟

ثم تأمل كيف قدر سبحانه كل واحد من تلك العظام بشكل مخصوص، بحيث حصل من مجموعها مالو كان على خلافه لبطلت المنفعة وفات الغرض، ثم ركب بعضها مع بعض بحيث حصل من مجموعها كرة الرأس على هذه الخلقة المخصوصة[2].

(١) يقصد بذلك الرأس.

(٢) «التبيان في أقسام القرآن»[٣٣٤-٣٣٥].

عجائب العقول:

ولما كان الرأس أشرف الأعضاء الإنسانية وأجمعها للقوى والمنافع، والآلات والخزائن، اقتضت العناية الإلهية بأن صين بأنواع من الصيانات وذلك أن الدماغ يحيطه غشاء رقيق، وفوق ذلك الغشاء غشاء آخر يقال له: «السِّمْحَاق» ثم فوق ذلك الغشاء طبقة لحمية، وفوق تلك الطبقة اللحمية الجلد، ثم فوق الجلد الشعر، فخلق سبحانه فوق دماغك سبع طبقات، كما خلق فوق الأرض سبع سموات طباقًا والمقصود من تخليقها الاحتياط في صون الدماغ من الآفات، والدماغ من الرأس بمنزلة القلب من البدن.

وهو سبحانه قسمه في طوله ثلاثة أقسام، وجعل القسم المقدم محل الحفظ والتخيل، والبطن الأوسط محل التأمل والتفكر، والبطن الأخير محل التذكر والاسترجاع لما كان قد نسيه، ولكل واحدة من هذه الأمور الثلاثة أمر مهم للإنسان، لابد له منه، وأنه محتاج إلى التفهم والتفهيم، ولو لم يكن حافظًا لمعاني التصورات وصورها بعد غيبتها؛ لكان إذا سمع كلمة وفهمها شذت عنه عند مجيء الأخرى، فلم يحصل المقصود من الفهم والإفهام، فجعل له ربه وفاطره خزانة تحفظ له صور المعلومات حتى تجتمع له وتسمى القوة التي فيها القوة الحافظة، ولاتتم مصلحة الإنسان إلا بها فإنه إذا رأى شيئًا ثم غاب عنه ثم رآه مرة أخرى عرف أن هذا الذي رآه قبل ذلك لأنه في المرة الأولى ثبتت صورته في الحافظة ثم تتوارى عنه بالحجاب، فلما رآه مرة ثانية صارت هذه الصورة المحسوسة مطابقة للمصورة المعنوية التي في الذهن، فحصل الجزم بأن هذا ذاك، ولولا القوة الحافظة لماحصل ذلك، ولما عرف أحد أحدًا بعد غيبته عنه، ولذلك إذا طالت الغيبة جدًا وانمحت تلك الصورة الأولى من الذهن بالكلية، لم يحصل له العلم بأن هذا هو الذي رآه أولًا إلا بعد تفكر وتأمل.

وقد قال قوم: إن محل هذه الصور النفس، وقال قوم: محلها القلب وقال قوم: محلها العقل، ولكل فريق منهم حجج وأدلة، وكل منهم أدرك شيئًا وغاب عنه شيء، إذ الإدراك المذكور مفتقر إلى مجموع ذلك، لا يتم إلا به.

والتحقيق: أن منشأ ذلك ومبدأه من القلب، ونهايته ومستقره في الرأس، وهي المسألة التي اختلف فيها الفقهاء: هل العقل في القلب أو في الدماغ؟ على قولين: حُكيا روايتين عن الإمام أحمد والتحقيق أن أصله ومادته من القلب وينتهي إلى الدماغ، قال تعالى:﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾ [الحج:٤٦]، فجعل العقل في القلب، كما جعل السمع بالأذن، والبصر بالعين، وقال تعالى:﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ ﴾ [ق:٣٧]. قال غير واحد من السلف: لمن كان له عقل.

واحتج آخرون: بأن الرجل يضرب في رأسه فيزول عقله، ولولا أن العقل في الرأس لما زال، فإن السمع والبصر لا يزولان بضرب اليد أو الرجل، ولاغيرهما من الأعضاء لعدم تعلقهما بهما.

وأجاب أرباب القلب عن هذا بأنه لا يمتنع زواله بفساد الدماغ، وإن كان في القلب لمابين القلب والرأس من الارتباط، وهذا كما لايمتنع نبات شعر اللحية بقطع الأنثيين، وفساد القوة بفساد العضو قد يكون لأنه محلها وارتباطه بها والله أعلم.

وعلى كل تقدير فذلك من أعظم آيات الله وأدلته وقدرته وحكمته، كيف ترتسم صورة السماوات والأرض والبحار، والشمس والقمر، والأقاليم والممالك، والأمم في هذا المحل الصغير؟ والإنسان يحفظ كتبًا كثيرة جدًا، وعلومًا شتى متعددة، وصنائع مختلفة فترتسم كلها في هذا الجزء الصغير، من غير أن يختلط بعض هذه الصور ببعض، بل كل صورة منهن بنفسها محصلة في هذا المحل، وأنت لو ذهبت تنقش صورًا وأشكالًا

كثيرة في محل صغير لاختلط بعضها ببعض، وطمس بعضها بعضا وهذا الجزء الصغير تنقش فيه الصور الكثيرة المختلفة، والمتضادة ولا يبطل منها صورة صورة.

ومن أعجب الأشياء أن هذه القوة العاقلة تقبل ما تؤديه إليها الحواس فتجتمع فيها، ثم تعيد كل حاسة منها فائدة الحاسة الأخرى، مثاله: أنك ترى الشخص فتعلم أنه فلان، وتسمع صوته، فتعلم أنه هو وتلمس الشيء فتعرفه، وتشمه فتعرف أنه هو ثم تستدل بما تسمعه من صوته على أنه هو الذي رأيته، فيغنيك سماع صوته عن رؤيته، ويقوم لك مقام مشاهدته، ولهذا جوز أكثر الفقهاء شهادة الأعمى وبيعه وشراءه، وأجمعوا على جواز وطئه امرأته، وهو لم يرها قط اعتمادًا منه على الصوت، بل لو كانت خرساء أيضًا وهو أطرش جاز له الوطء.

وقد جعل الله سبحانه بين السمع والبصر والفؤاد علاقة وارتباطًا ونفوذًا يقوم به بعضها مقام بعض، ولهذا يقرن سبحانه بينهما كثيرًا في كتابه كقوله: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾[الإسراء:٣٦]. وقوله تعالى:﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا﴾ [الأحقاف:٢٦].

وقوله:﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ﴾ [الأعراف: ١٧٩]

وهذا من عناية الخالق سبحانه بكمال هذه الصورة البشرية، لتقوم كل حاسة منها مقام الحاسة الأخرى، وتفيد فائدتها في الجملة لا في كل شيء.

ثم أودع سبحانه قوة التفكر وأمره باستعمالها فيما يجدي عليه النفع في الدنيا والآخرة، فركب القوة المفكرة من شيئين من الأشياء الحاضرة عند القوة الحافظة تركيبًا خاصًا، فيتولد من بين هذين الشيئين شيء ثالث جديد لم يكن للعقل شعور به، كانت مواده عنده لكن بسبب التركيب حصل له الأمر الثالث، ومن ههنا حصل استخراج الصنائع، والحرف، والعلوم، وبناء المدن، والمساكن، وأمور الزراعة والفلاحة، وغير

ذلك، فلما استخرجت القوة المفكرة، ذلك واستحسنته سلمته إلى القوة الإرادية العلمية، فنقلته من ديوان الأذهان إلى ديوان الأعيان فكان أمرًا ذهنيًا ثم صار وجوديًا خارجيًا، ولولا الفكرة لما اهتدى الإنسان إلى تحصيل المصالح ودفع المفاسد، وذلك من أعظم النعم وتمام العناية الإلهية، ولهذا لما فقد البهائم والمجانين ونحوهم هذه القوة لم يتمكنوا مما تمكن منه أرباب الفكر.

ولما كان استخراج المطلوب بهذه الطريق يتضمن فكرًا وتقديرًا فيفكر في استخراج المادة أولًا، ثم يقدرها ويفصلها ثانيًا كما يصنع الخياط يحصل الثوب ثم يقدره ويفصله ثانيًا قال تعالى عن الوليد: ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّا ۖ إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴾ [المدثر: ١١-١٩].

فكرر سبحانه التقدير دون التفكير، وذمه عليه دونه وهذا منزل على مقتضى حال سواه، فإنه بالفكر طالب لاستخراج المجهول، وذلك غير مذموم، فلما استخرجه قدر له تقديرين: تقديرا كليًا وتقديرًا جزئيًا فالتقدير الكلي أن الساحر هو الذي يفرق بين المرء وزوجه، والتقدير الجزئي أن الذي يفرق بين المرء وزوجه مذموم، فههنا تقدير بعد تقدير، فلهذا كرره سبحانه وذمه عليه وأما التفكير فإن الفكر طالب لمعرفة الشيء، فلا يذم بخلاف من قدر بعد تفكيره ما يوصله إلى تحقيق الباطل وإبطال الحق، فتأمله[1].

عجائب الحواس:

فاعد النظر في نفسك وحكمة الخلاق العليم في خلقك وانظر إلى الحواس التي منها تشرف على الأشياء كيف جعلها الله في الرأس كالمصابيح فوق المنارة لتتمكن بها من مطالعة الأشياء ولم تجعل في الأعضاء التي تمتهن كاليدين والرجلين، فتتعرض للآفات

(١) السابق [٣٣٥-٣٣٩].

بمباشرة الأعمال والحركات، ولا جعلها في الأعضاء التي في وسط البدن كالبطن والظهر، فيعسر عليك التلفت والاطلاع على الأشياء، فلما لم يكن لها في شيء من هذه الأعضاء موضع كان الرأس أليق المواضع بها وأجملها، فالرأس صومعة الحواس ثم تأمل الحكمة في أن جعل الحواس، خمسًا في مقابلة المحسوسات الخمس ليلقى خمسًا بخمس كي لا يبقى شيء من المحسوسات لا يناله بحاسة فجعل البصر في مقابلة المبصرات والسمع في مقابلة الأصوات والشم في مقابلة أنواع الروائح المختلفات والذوق في مقابلة الكيفيات المذوقات، واللمس في مقابلة الملموسات، فأي محسوس بقي بلا حاسة ولو كان في المحسوسات شيء غير هذه لأعطاك له حاسة سادسة ولما كان ما عداها إنما يدرك بالباطن أعطاك الحواس الباطنة وهي هذه الأخماس التي جرت عليها السنة العامة والخاصة حيث يقولون في المفكر المتأمل ضرب أخماسه في أسداسه فأخماسه حواسه الخمس وأسداسه جهاته الست وأرادوا بذلك أنه جذبه القلب وسار به في الأقطار والجهات حتى قلب حواسه الخمس في جهاته الست وضربها فيها لشدة فكره.

ما أعينت به الحواس ليتم الإدراك:

ثم أعينت هذه الحواس بمخلوقات أخر منفصلة عنها تكون واسطة في أجسامها فأعينت حاسة البصر بالضياء والشعاع، فلولاه لم ينتفع الناظر ببصره فلو منع الضياء والشعاع لم تنفع العين شيئًا وأعينت حاسة السمع بالهواء يحمل الأصوات في الجو ثم يلقيها إلى الأذن فتحويه ثم تقلبه إلى القوة السامعة ولولا الهواء لم يسمع الرجل شيئًا.

وأعينت حاسة الشم بالنسيم اللطيف يحمل الرائحة ثم يؤديها إليها، فتدركها فلولا هو لم تشم شيئًا وأعينت حاسة الذوق بالريق المتحلل في الفم تدرك القوة الذائقة به طعوم الأشياء، ولهذا لم يكن له طعم لا حلو ولا حامض ولا مالح ولا حريف[1]، لأنه كان يحيل تلك الطعوم إلى طعمه ولا يحصل به مقصوده.

(١) كل طعام يحرق فم آكله بحرارة مذاقه حِرِّيف بالتشديد للذي يلذع اللسان بحرافته.

وأعينت حاسة اللمس بقوة جعلها الله فيها تدرك بها الملموسات ولم تحتج إلى شيء من خارج بخلاف غيرها من الحواس، بل تدرك بها الملموسات، بلا واسطة بينها وبينها؛ لأنها إنما تدركها بالاجتماع والملامسة، فلم تحتج إلى واسطة[١].

وهذا بحث متصل بقاعدة أخرى وهي: أن الحواس والعقل هل مبدؤها القلب والدماغ؟ فقالت طائفة: مبدؤها كلها القلب وهي مرتبطة به وبينه وبين الحواس منافذ وطرق، قالوا: وكل واحد من هذه الأعضاء التي هي آلات الحواس له اتصال بالقلب بأعصاب وغير ذلك، وهذه الأعصاب تخرج من القلب إلى أن تأتي إلى كل واحد من هذه الأجسام التي فيها هذه الحواس قالوا: فالعين إذا أبصرت شيئًا أدته بالآلة التي فيها إلى القلب؛ لأن هذه الآلة متصلة منها إلى القلب.

والسمع إذا أحس صوتًا أداه إلى القلب، وكذلك كل حاسة.

ثم أوردوا على أنفسهم سؤالًا فقالوا: إن قيل: كيف يجوز أن يكون عضوًا واحدًا على ضروب من الامتزاج يمده عدة حواس، مختلفة وأجسام هذه الحواس مختلفة وقوة كل حاسة مخالفة لقوة الحاسة الأخرى؟ وأجابوا عن ذلك بأن جميع العروق التي في البدن، كلها متصلة بالقلب إما بنفسها وإما بواسطة، فما من عرق ولا عضو إلاوله اتصال بالقلب اتصالًا قريبًا أو بعيدًا.

قالوا: وينبعث منه في تلك العروق والمجاري إلى كل عضو ما يناسبه ويشاكله، فينبعث منه إلى العينين ما يكون منه حس البصر وإلى الأذنين ما يدرك به المسموعات وإلى اللحم ما يكون منه حس اللمس وإلى الأنف ما يكون به حس الشم وإلى اللسان ما يكون به حس الذوق وإلى كل ذي قوة ما يمد قوته ويحفظها فهو المعد لهذه الأعضاء والحواس والقوى.

---

(١) «مفتاح دار السعادة» [٤٠٤-٤٠٥].

ولهذا كان الرأي الصحيح إنه أول الأعضاء تكوينًا قالوا: ولا ريب أن مبدأ القوة العاقلة منه وإن كان قد خالف في ذلك آخرون.

وقالوا: بل، العقل في الرأس.

فالصواب أن مبدأه ومنشأه من القلب وفروعه وثمرته في الرأس.

والقرآن قد دل على هذا بقوله: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾[الحج:٤٦]. وقال: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ ﴾.

[ق:٣٧]

ولم يرد بالقلب هنا مضغة اللحم المشتركة بين الحيوانات، بل المراد ما فيه من العقل واللب.

ونازعهم في ذلك طائفة أخرى وقالوا: مبدأ هذه الحواس إنما هو الدماغ وأنكروا أن يكون بين القلب والعين والأذن والأنف أعصاب أو عروق وقالوا: هذا كذب على الخلقة.

والصواب التوسط بين الفريقين وهو أن القلب تنبعث منه قوة إلى هذه الحواس، وهي قوة معنوية لا تحتاج في وصولها إليه إلى مجار مخصوصة وأعصاب تكون حاملة لها، فإن وصول القوى إلى هذه الحواس والأعضاء لا يتوقف إلا على قبولها واستعداها وإمداد القلب لا على[1] مجار وأعصاب، وبهذا يزول الإلتباس في هذا المقام الذي طال فيه الكلام، وكثر فيه النزاع والخصام والله أعلم وبه التوفيق للصواب.

والمقصود التنبيه على أقل القليل من وجوه الحكمة التي في خلق الإنسان والأمر أضعاف أضعاف ما يخطر بالبال أو يجري فيه المقال، وإنما فائدة ذكر هذه الشذرة التي هي كل شيء بالنسبة إلى ما وراءها التنبيه.

---

(١) السابق [٣٠٠-٣٠١].

ثم تأمل مرة أخري كيفية خلق الرأس وكثيرة ما فيه من العظام حتي قيل إنها خمسة وخمسون عظمًا مختلفة الأشكال والمقادير والمنافع، وكيف ركبه الله -سبحانه وتعالى- على البدن وجعله عاليًا علو الراكب على المركوب ولما كان عاليًا على البدن جعل فيه الحواس الخمس وآلات الإدراك كلها من السمع والبصر والشم والذوق واللمس وجعل حاسة البصر في مقدمته ليكون كالطليعة والحرس والكاشف للبدن، وركب كل عين من سبع طبقات لكل طبقة وصف مخصوص ومقار مخصوص ومنفعة مخصوصة، لفقدت من تلك الطبقات السبع أو زالت عن هيئتها وموضعها لتعطلت العين عن الأبصار ثم أركز سبحانه داخل تلك الطبقات السبع خلقًا عجيبًا وهو إنسان العين بقدر العدسة يبصر به ما بين المشرق والمغرب والأرض والسماء، وجعله من العين بمنزلة القلب من الأعضاء فهو ملكها وتلك الطبقات والأجفان والأهداب خدم له وحجاب وحراس فتبارك الله أحسن الخالقين[١].

الحكمة من إيصال النَّفس إلى النَّفس وإخرجه منها:

وهو سبحانه جعل القلب أمير البدن، ومعدنًا للحرارة الغريزية فإذا استنشق الهواء البارد وصل إلى القلب واعتدلت حرارته، فيبقى هناك مدة فلما سخن واحتراق، واحتاج إلى إخراجه ودفعه منه لم يضيع أحكم الحاكمين ذلك النفس ويخرجه بغير فائدة، بل جعل إخراجه سببًا لحدوث الصوت، ثم جعل سبحانه في الحنجرة واللسان والحنك باختلافها الصوت، فيحدث الحرف ثم ألهم الإنسان أن يركب ذلك الحرف إلى مثله ونظيره، فيحدث الكلمة، ثم ألهمه تركيب تلك الكلمة إلى مثلها، فيحدث الكلام.

فتأمل هذه الحكم الباهرة في إيصال النفس إلى القلب لحفظ حياته، ثم عند الحاجة إلى إخراجه والاستغناء عنه جعله سببًا لهذه المنفعة العظيمة فتبارك الله أحسن الخالقين.

---

(١) «مفتاح دار السعادة» [٢٩٣].

وخلق سبحانه هذه المقاطع والحناجر مختلفة الأشكال فكما أنه لا تتشابه صورتان، كذلك لا يتشابه صوتان من كل وجه[١]، بل كما يحصل الامتياز بين الأشخاص بالقوة الباصرة فكذلك يحصل بالقوة السامعة، فيحصل الامتياز للأعمى والبصير.

الأصوات وما فيها من عجائب وأسرار:

ثم تأمل هذا الصوت الخارج من الحلق وتهيئة آلاته والكلام وانتظامه والحروف ومخارجها وأدواتها ومقاطعها وأجراسها تجد الحكمة الباهرة في هواء ساذج يخرج من الجوف فيسلك في أنبوبة الحنجرة حتى ينتهي إلى الحلق واللسان والشفتين والأسنان، فيحدث له هناك مقاطع ونهايات وأجراس يسمع له عند كل مقطع ونهاية جرس مبين منفصل عن الآخر يحدث بسببه الحرف فهو صوت واحد ساذج يجرى في قصبة واحدة حتى ينتهي إلى مقاطع وحدود تسمع له منها تسعة وعشرين حرفًا يدور عليها الكلام كله أمره ونهيه وخبره واستخباره ونظمه ونثره وخطبه ومواعظه وفضوله، فمنه المضحك، ومنه المبكي، ومنه المؤيس، ومنه المطمع، ومنه المخوف، ومنه المرجي والمسلي، والمحزن والقابض للنفس والجوارح، والمنشط لها والذي يسقم الصحيح ويبرئ السقيم، ومنه ما يزيل النعم ويحل النقم، ومنه ما يستدفع به البلاء ويستجلب به النعماء وتستمال به القلوب، ويؤلف به بين المتباغضين، ويوالي به بين المتعاديين، ومنه ما هو بضد ذلك، ومنه الكلمة التي لا يلقى لها صاحبها بالًا يهوي بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب[٢] والكلمة التي لا يلقى لها بالًا صاحبها يركض بها في أعلى عليين في جوار رب العالمين.

فسبحان من أنشأ ذلك كله من هواء ساذج يخرج من الصدر لا يدري ما يراد به ولا أين ينتهي ولا أين مستقره هذا إلى ما في ذلك من اختلاف الألسنة واللغات التي لا

---

(١) يوجد الآن ما يعرف ببصمة الصوت وبصمة العين فكما لا يشبه بنان إنسان بنان آخر في العالم فكذلك الصوت والنظر فيها تلك البصمة فسبحان من خلق فأبدع وقدر فهدى.

(٢) روي في ذلك حديث رواه البخاري برقم [٦٤٧٧]، ومسلم برقم [٢٩٨٨].

يحصيها إلا الله، فيجتمع الجمع من الناس من بلاد شتى فيتكلم كل منهم بلغته، فتسمع لغات مختلفة كلامًا منتظمًا مؤلفًا، ولا يدري كل منهم ما يقول الآخر.

واللسان الذي هو جارحة واحد في الشكل والمنظر، وكذلك الحلق والأضراس والشفتان والكلام مختلف متفاوت أعظم تفاوت، فالآية في ذلك كالآية في الأرض التي تسقى بماء واحد وتخرج مع ذلك من أنواع النبات والأزهار والحبوب والثمار تلك الأنواع المختلفة المتباينة ولهذا أخبر الله سبحانه في كتابه أن في كل منهما آيات فقال: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ [الروم: ٢٢].

وقال: ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ ﴾ [الرعد: ٤].

فانظر الآن في الحنجرة كيف هي كالأنبوب لخروج الصوت واللسان والشفتان والأسنان لصياغة الحروف والنغمات؟ ألا ترى أن من سقطت أسنانه لم يقم الحروف التي تخرج منها ومن اللسان، ومن نقصت شفته كيف لم يقم الحروف الشفهية ومن ثقل لسانه كيف لم يقم الراء واللام والذال، ومن عرضت له آفة في حلقه كيف لم يتمكن من الحروف الحلقية.

وقد شبه أصحاب التشريح مخرج الصوت بالمزمار والرئة بالزق[1] الذي ينفخ فيه من تحته، ليدخل الريح فيه والفضلات التي تقبض على الرئة، ليخرج الصوت من الحنجرة بالأكف التي تقبض على الزق حتى يخرج الهواء في القصب والشفتين والأسنان التي تصوغ الصوت حروفًا ونغمًا بالأصابع التي تختلف على المزمار، فتصوغه ألحانًا

(١) الزق: وعاء من جلد يبخر شعره، يتخذ للماء ونحوه.

والمقاطع التي ينتهي إليها الصوت بالأبخاش[١] التي في القصبة حتى قيل: إن المزمار إنما اتخذ على مثال ذلك من الإنسان.

فإذا تعجبت من الصناعة التي تعملها أكف الناس حتى تخرج منها تلك الأصوات فما أحراك بطول التعجب من الصناعة الإلهية التي أخرجت تلك الحروف والأصوات من اللحم والدم والعروق والعظام ويا بعد ما بينهما، ولكن المألوف المعتاد لا يقع عند النفوس موقع التعجب، فإذا رأت ما لا نسبة له إليه أصلًا إلا أنه غريب عندها تلقته بالتعجب وتسبيح الرب تعالى وعندها من آياته العجيبة الباهرة ما هو أعظم من ذلك مما لا يدركه القياس.

ثم تأمل اختلاف هذه النغمات وتباين هذه الأصوات مع تشابه الحناجر والحلوق والألسنة والشفاه والأسنان، فمن الذي ميز بينها أتم تمييز مع تشابه محالها سوى الخلاق العليم؟!

آلات الأصوات ومنافعها الأخري:

وفي هذه الآلات مآرب أخرى ومنافع سوى منفعة الكلام، ففي الحنجرة مسلك النسيم البارد الذي يروح على الفؤاد بهذا النفس الدائم المتتابع.

وفي اللسان منفعة الذوق فتذاق به الطعوم وتدرك لذتها ويميز بها بينها، فيعرف حقيقة كل واحد منها وفيه مع ذلك معونة على إساغة الطعام وأن يلوكه ويقلبه حتى يسهل مسلكه في الحلق.

وفي الأسنان من المنافع ما هو معلوم من تقطيع الطعام كما تقدم وفيها إسناد الشفتين وإمساكهما عن الاسترخاء وتشويه الصورة، ولهذا ترى من سقطت أسنانه كيف تسترخي شفتاه.

---

(١) أي الثقوب.

وفي الشفتين منافع عديدة، يرشف بها الشراب حتى يكون الداخل منه إلى حلقه بقدر، فلا يشرق به الشارب، ثم هما باب مغلق على الفم الذي إليه ينتهي إليه ما يخرج من الجوف ومنه يبتدي ما يلج فهما غطاء وطابق عليه، يفتحهما البواب متى شاء، ويغلقهما إذا شاء، وهما أيضًا جمال وزينة للوجه وفيهما منافع أخرى سوى ذلك، وانظر إلى من سقطت شفتاه ما أشوه منظره.

وقد بان أن كل واحد من هذه الأعضاء يتصرف إلى وجوه شتى من المنافع والمآرب والمصالح كما تتصرف الأداة الواحدة في أعمال شتى.

هذا ولو رأيت الدماغ وكشف لك عن تركيبه وخلقه لرأيت العجب العجاب وتكشف لك عن تركيب يحار فيه العقل قد كُنَّ[١] بحجب وأغشية بعضها فوق بعض لتصونه عن الأعراض وتحفظه عن الاضطراب.

ثم أطبقت عليه الجمجمة بمنزلة الخوذة وبيضة[٢] الحديد؛ لتقيه حد الصدمة والسقطة والضربة التي تصل إليه فتتلقاها تلك البيضة عنه بمنزلة الخوذة التي على رأس المحارب.

ثم جللت تلك الجمجمة بالجلد الذي هو فروة الرأس يستر العظم من البروز للمؤذيات ثم كسيت تلك الفروة حلة من الشعر الوافر وقاية لها وسترًا من الحر والبرد والأذى وجمالًا وزينًة له.

فسل المعطل من الذي حصن الدماغ هذا التحصين وقدره هذا التقدير، وجعله خزانة أودع فيها من المنافع، والقوى، والعجائب، ما أودعه ثم أحكم سد تلك الخزانة وحصنها أتم تحصين وصانها أعظم صيانة وجعلها معدن الحواس والإدراكات؟!!

---

(١) أي: غطى وستر.

(٢) هي: ما يُتقي به ضرب السيوف والسهام في الحروب وتلبس على الرأس.

ومن الذي جعل الأجفان على العينين كالغشاء، والأشفار كالأشراج[١] والأهداب[٢] كالرفوف عليها إذا فتحت؟! ومن الذي ركب طبقاتها المختلفة طبقة فوق طبقة حتى بلغت عدد السماوات سبعًا وجعل لكل طبقة منفعة وفائدة، فلو اختلت طبقة منها لاختل البصر؟!

ومن شقهما في الوجه أحسن شق وأعطاهما أحسن شكل وأودع الملاحة فيهما وجعلهما مرآة للقلب وطليعة وحارسًا للبدن ورائدًا يرسله كالجند في مهماته، فلا يتعب ولا يعيا على كثرة ظعنه وطول سفره ومن أودع النور الباصر فيه في قدر جرم العدسة، فيرى فيه السماوات والأرض والجبال والشمس والقمر والبحار والعجائب من داخل سبع طبقات وجعلهما في أعلى الوجه بمنزلة الحارس على الرابية العالية ربيئة[٣] للبدن[٤].

الحكمة من الحفظ والنسيان في الإنسان:

ثم تأمل حكمة الله -عَزَّ وَ جَلَّ- في الحفظ والنسيان الذي خص به نوع الإنسان وماله فيهما من الحكم وما للعبد فيهما من المصالح فإنه لولا القوة الحافظة التي خص بها لدخل عليه الخلل في أموره كلها، ولم يعرف ماله، وما عليه، ولا ما أخذ، ولا ما أعطى، ولا ما سمع، ورأى، ولا ما قال، ولا ما قيل له، ولا ذكر من أحسن إليه، ولا من أساء إليه، ولا من عامله، ولا من نفعه، فيقرب منه ولا من ضره، فينأى عنه ثم كان لايهتدي إلى الطريق الذي سلكه أول مرة ولو سلكه مرارًا ولا يعرف علمًا ولو درسه عمره ولا

---

(١) الأشراج: جمع شرج وهو منفسح الوادي.

(٢) الأهداب: جمع هدب وهو: شعر أشفار العين.

(٣) أي: طليعة.

(٤) «مفتاح دار السعادة» [٤١٠-٤١٣].

ينتفع بتجربة، ولا يستطيع أن يعتبر شيئًا على ما مضى، بل كان خليقًا أن ينسلخ من الإنسانية أصلًا، فتأمل عظيم المنفعة عليك في هذه الخلال وموقع الواحدة منها فضلًا عن جميعهن.

ومن أعجب النعم عليه نعمة النسيان، فإنه لولا النسيان لما سلا شيئًا ولا انقضت له حسرة ولا تعزى عن مصيبة، ولا مات له حزن، ولا بطل له حقد، ولا تمتع بشيء من متاع الدنيا، مع تذكر الآفات ولا رجا غفلة عدو ولا نقمة من حاسد، فتأمل نعمة الله في الحفظ والنسيان مع اختلافهما وتضادهما وجعله في كل واحد منهما ضربًا من المصلحة.

الحكمة من اختصاص الإنسان بخلق الحياء:

ثم تأمل هذا الخلق الذي خص به الإنسان، دون جميع الحيوان، وهو خلق الحياء الذي هو من أفضل الأخلاق وأجلها ،وأعظمها قدرًا، وأكثرها نفعًا، بل هو خاصة الإنسانية فمن لا حياء فيه ليس معه من الإنسانية، إلا اللحم والدم وصورتهم الظاهرة، كما أنه ليس معه من الخير شيء ولولا هذا الخلق؛ لم يُقْر الضيف ولم يُوف بالوعد ولم يؤد أمانة ولم يقض لأحد حاجة، ولا تحرى الرجل الجميل، فآثره والقبيح فتجنبه ولا ستر له عورة ولا امتنع من فاحشة.

وكثير من الناس لولا الحياء الذي فيه لم يؤد شيئًا من الأمور المفترضة عليه، ولم يرع لمخلوق حقًا ولم يصل له رحمًا ولا بر له والدًا.

فإن الباعث على هذه الأفعال إما ديني وهو رجاء عاقبتها الحميدة، وإما دنيوي علوي وهو حياء فاعلها من الخلق قد تبين أنه لولا الحياء إما من الخالق أو من الخلائق لم يفعلها صاحبها. وفي الترمذي وغيره مرفوعًا «**استحيوا من الله حق الحياء قالوا: وما حق الحياء؟ قال: أن تحفظ الرأس وما حوى، والبطن،**

وما وعى، وتذكر المقابر والبلى»[1] وقال ﷺ «**إذا لم تستح فاصنع ما شئت**»[2] وأصح القولين فيه قول أبي عبيد والأكثرين أنه تهديد كقوله تعالى: ﴿ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ﴾ [فصلت: ٤٠]. وقوله: ﴿كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ قَلِيلًا﴾ [المرسلات: ٤٦].

وقالت طائفة: هو إذن وإباحة، والمعنى إنك إذا أردت أن تفعل فعلًا، فانظر قبل فعله فإن كان مما يستحيا فيه من الله ومن الناس، فلا تفعله وإن كان مما لا يستحيا منه، فافعله فإنه ليس بقبيح. وعندي أن هذا الكلام صورة صورته الطلب ومعناه معنى الخبر وهو في قوة قولهم: من لا يستحي صنع ما يشتهي.

فليس بإذن ولا هو مجرد تهديد وإنما هو في معنى الخبر.

والمعنى أن الرادع عن القبيح إنما هو الحياء، فمن لم يستح فإنه يصنع ما شاء.

وإخراج هذا المعنى في صيغة الطلب لنكته بديعة جدًا وهي أن للإنسان آمرين وزاجرين: آمر وزاجر من جهة الحياء فإذا أطاعه امتنع من فعل كل ما يشتهي، وله آمر وزاجر من جهة الهوى والطبيعة، فمن لم يطع آمر الحياء وزاجره أطاع آمر الهوى والشهوة ولا بد، فإخراج الكلام في قالب الطلب يتضمن هذا المعنى دون أن يقال من لا يستحي صنع ما يشتهي.

نعمة البيان النطقي والبيان الخطي:

ثم تأمل نعمة الله على الإنسان بالبيانين البيان النطقي والبيان الخطي وقد اعتد بهما سبحانه في جملة من اعتد به من نعمه على العبد، فقال في أول سورة أنزلت على رسول الله ﷺ ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ [العلق: ١-٥].

---

(١) رواه الترمذي برقم [٢٤٥٨]، وحسنه الألباني في صحيح الجامع برقم [٩٣٥].

(٢) رواه البخاري برقم [٣٤٨٣].

فتأمل كيف جمع في هذه الكلمات مراتب الخلق كلها وكيف تضمنت مراتب الوجودات الأربعة بأوجز لفظ وأوضحه وأحسنه فذكر أولًا عموم الخلق وهو إعطاء الوجود الخارجي.

ثم ذكر ثانيًا خصوص خلق الإنسان؛ لأنه موضع العبرة والآية فيه عظيمة ومن شهوده عما فيه محض تعدد النعم.

وذكر مادة خلقه ها هنا من العلقة وفي سائر المواضع يذكر ما هو سابق عليها إما مادة الأصل وهو التراب، والطين، أو الصلصال، الذي كالفخار، أو مادة الفرع وهو الماء المهين، وذكر في هذا الموضع أول مبادئ تعلق التخليق وهو العلقة، فإنه كان قبلها نطفة، فأول انتقالها إنما هو إلى العلقة ثم ذكر ثالثًا التعليم بالقلم الذي هو من أعظم نعمه على عباده، إذ به تخلد العلوم، وتثبت الحقوق، وتعلم الوصايا، وتحفظ الشهادات، ويضبط حساب المعاملات الواقعة بين الناس، وبه تقيد أخبار الماضين للباقين اللاحقين.

ولولا الكتابة لانقطعت أخبار بعض الأزمنة عن بعض، ودرست السنن، وتخبطت الأحكام ولم يعرف الخلف مذاهب السلف وكان يعظم الخلل الداخل على الناس في دينهم ودنياهم، لمايعتريهم من النسيان الذي يمحو صور العلم من قلوبهم، فجعل لهم الكتاب وعاء حافظًا للعلم من الضياع كالأوعية التي تحفظ الأمتعة من الذهاب والبطلان.

فنعمة الله عزَّ وجلَّ بتعليم القلم بعد القرآن من أجل النعم والتعليم به وإن كان مما يخلص إليه الإنسان بالفطنة والحيلة، فإنه الذي بلغ به ذلك وأوصله إليه عطية وهبها الله منه وفضل أعطاه الله إياه وزيادة في خلقه وفضله فهو الذي علمه الكتابة وإن كان هو المتعلم، ففعله فعل مطاوع لتعليم الذي علم بالقلم، فإن علمه فتعلم، كما أنه علمه الكلام فتكلم.

هذا ومن أعطاه الذهن الذي يعي به، واللسان الذي يترجم به، والبنان الذي يخط به؟ ومن هيأ ذهنه لقبول هذا التعليم دون سائر الحيوانات؟ ومن الذي أنطق لسانه وحرك بنانه؟ ومن الذي دعم البنان بالكف، ودعم الكف بالساعد؟ فكم لله من آية نحن غافلون عنها في التعلم بالقلم، فقف وقفة في حال الكتابة وتأمل حالك وقد أمسكت القلم وهو جماد وضعته على القرطاس وهو جماد، فتولد من بينهما أنواع الحكم وأصناف العلوم وفنون المراسلات والخطب والنظم والنثر وجوابات المسائل.

فمن الذي أجرى فلك المعاني على قلبك ورسمها في ذهنك ثم أجرى العبارات الدالة عليها على لسانك ثم حرك بها بنانك حتى صارت نقشًا عجيبًا معناه أعجب من صورته، فتقضي به مآربك وتبلغ به حاجة في صدرك وترسله إلى الأقطار النائية والجهات المتباعدة، فيقوم مقامك ويترجم عنك ويتكلم على لسانك ويقوم مقام رسولك ويجدي عليك مالا يجدي من ترسله سوى من علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم والتعليم بالقلم يتستلزم المراتب الثلاثة: مرتبة الوجود الذهني، والوجود اللفظي، والوجود الرسمي.

فقد دل التعليم بالقلم على أنه سبحانه هو المعطي لهذه المراتب، ودل قوله: «خلق» على أنه يعطي الوجود بأسرها مسندة إليه خلقًا وتعليما.

وذكر خلقين وتعليمين: خلقًا عامًا وخلقًا خاصًا وتعليما خاصًا وتعليما عامًا. وذكر من صفاته ها هنا اسم الأكرم الذي فيه كل خير وكل كمال فله كل كمال وصفًا ومنه كل خير فعلًا فهو الأكرم في ذاته وأوصافه وأفعاله.

وهذا الخلق والتعليم إنما نشأ من كرمه وبره وإحسانه لا من حاجة دعته إلى ذلك وهو الغني الحميد وقوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ﴾ دلت هذه الكلمات على إعطائه سبحانه مراتب الوجود بأسرها.

فقوله: ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ ﴾، إخبار عن الإيجاد الخارجي العيني وخص الإنسان بالخلق لما تقدم.

وقوله: ﴿ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾، إخبار عن إعطاء الوجود العلمي الذهني فإنما تعلم الإنسان القرآن بتعليمه كما أنه إنما صار إنسانًا بخلقه فهو الذي خلقه وعلمه.

ثم قال: ﴿ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴾، والبيان يتناول مراتب ثلاثة كل منها يسمى بيانًا.

أحدها- البيان الذهني الذي يميز فيه بين المعلومات.

الثاني- البيان اللفظي الذي يعبر به عن تلك المعلومات ويترجم عنها فيه لغيره.

الثالث- البيان الرسمي الخطي الذي يرسم به تلك الألفاظ فيتبين الناظر معانيها كما يتبين للسامع معاني الألفاظ فهذا بيان للعين وذاك بيان للسمع والأول بيان للقلب وكثيرًا ما يجمع سبحانه بين هذه الثلاثة كقوله: ﴿ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾[الإسراء:٣٦]، وقوله: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل:٧٨][(١)].

قوة البدن:

والقوة التي وكلها الله سبحانه وتعالى بتدبير البدن من أعظم آياته الدالة عليه، فإنها تفعل في الطعام، والشراب، الواردين، عليه أفعالًا متنوعة، من تقطيع، وتفصيل، وتمريخ، وتحليل، وتركيب، فمبدأ ذلك في الفم وهو تقطيعه بالأسنان ومضغه واختلاطه بالرطوبات التي فيه، وانهضامه فيه انهضامًا تامًا، ثم بعد ذلك عند وروده إلى المعدة تهضمه هضمًا آخر ويسمى الهضم الأول، ويعينها على هضمه ما يجاورها من الأعضاء، فالكبد عن يمينها، والطحال عن يسارها، والقلب من فوقها، والمريء أمامها، والأمعاء السبل الموصلة إليها، والعروق الطرق المؤدية منها، والحرارة النار الطابخة للطعام فيها،

(١) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٤٤٢-٤٢٥).

والقوة الهاضمة والجاذبة، والغاذية، والدامعة خدم لها، فإذا انهضم الطعام فيها صار كيلوسًا[١] شبيهًا بماء الكشل الثخين، ثم تنهز صوبه ولطيفه، فتقذفه العروق الرقاق الشعرية التي هي برقة الشعر وينجذب إلى الكبد، فإذا ورد هذا اللطيف إلى الكبد اشتملت عليه بجملته فطبخته وهضمته وأحالته إلى جوهرها، وصيرته دمًا، ويسمى هذا الهضم الثاني، ولما كان هذا الإنضاج والطبخ يشبه طبخ القدر علاه شيء كالرغوة والزبد، وهي الصفراء، ورسب منه شيء مثل العكر، وهو السوداء، وتخلف عن تمام النضج شيء بقي على فجوجته وهو البلغم، والشيء الذي يصفى ويبقى من ذلك كله هو الدم، فاندفع من الكبد في العرق الأعظم المعروف بالأجوف بعد أن تصفت عنه المائية إلى آلة البول، فيسلك هذا الدم في الأوردة المتشعبة من الجوف، ثم في جداول متثقبة من الأوردة، ثم في سواقي متثقبة من الجداول، ثم في رواضع مشتقة من السواقي، ثم في عروق رقاق شعرية، ثم يرشح من أفواهها في الأعضاء لتغتذي به، فتحله الأعضاء وتصيره لجوهرها، فيصير في اللحم لحمًا، وفي العظم عظمًا، وفي العصب عصبًا، وفي الظفر ظفرًا وفي الشعر شعرًا، وفي السمع والبصر وآلة الحس كذلك، فتبارك من هذا صنعه في قطرة من ماء مهين.

والدم هو الخليط الأصلي والغذاء الحقيقي للبدن، والمخلف عليه بدل ما ينقص ويتحلل منه والأخلاط الأخر كالأبازير والتوابل وهي صنفان: صنف لطيف، وهو دم القلب، وغليظ وهو دم الكبد ومثله مثل السلطان إذا كان وقورًا حليمًا ساكنًا عاشت به رعيته، وإذا غضب واحتد قتل[٢].

(١) الكيلوس: مستحلب الطعام المهضوم.

(٢) «التبيان في أقسام القرآن» (٣٢٢-٣٢٣).

عجائب الجهاز الهضمي:

نحن نذكر فصلًا مختصرًا في هذا الباب يجمع شتات ذلك بإيضاح وإيجاز إن شاء الله تعالى، وبه الحول والقوة فنقول:

المريء موضوع خلف الحلقوم ومما يلي فقار الظهر، وينتهي في ذهابه إلى الحجاب وهو مشدود برباطات، فإذا أبعد مال إلى الجانب الأيسر واتسع، وذلك المتسع هو المعدة وأسفلها يعود مائلًا إلى اليمين، والمعدة مقر طبخه، وفمها هو المسدف منها ويسمونه الفؤاد وهذا من غلطهم، إلا أن يكون ذلك اصطلاحًا خاصًا منهم والفؤاد عند أهل اللغة هو القلب، قال الجوهري: الفؤاد القلب وقال الأصمعي: وفي الجوف الفؤاد وهو القلب، وقد فرق بعض أهل اللغة بين القلب والفؤاد فقال الليث: القلب مضغة من الفؤاد معلقة بالنياط، وقالت طائفة: مسدف القلب، وقال النبي ﷺ: «**جاءكم أهل اليمن أرق قلوبًا، وألين أفئدة**»[1] ففرق بينهما ووصف القلب بالرقة والأفئدة باللين، وأما كون فم المعدة هو الفؤاد فهذا لا نعلم أحدًا من أهل اللغة قاله وتأمل وصف النبي صلى الله عليه و سلم القلب بالرقة التي هي ضد القساوة والغلظة، والفؤاد باللين الذي هو ضد اليبس والقسوة، فإذا اجتمع لين الفؤاد إلى رقة القلب حصل من ذلك الرحمة، والشفقة، والإحسان، ومعرفة الحق وقبوله، فإن اللين موجب للقبول والفهم، والرقة تقتضي الرحمة والشفقة، وهذا هو العلم والرحمة وبهما كمال الإنسان وربنا وسع كل شيء رحمة وعلمًا، فلنرجع إلى ما نحن بصدده فنقول:

المعدة مع المريء ذات طبقتين لطيفتين، واللحم في الطبقة الداخلة أقل ولهذا يغلب عليها البياض، وهي عصبية حساسة، وهي في الطبقة الخارجة أكثر، ولهذا يغلب عليها الحمرة، وهي مربوطة مع الفقار برباطات وثيقة، وتنتهي من جهة قعرها إلى منفذ هو

(١) رواه البخاري برقم [٤٣٨٨]، ومسلم بقم [٥٢].

باب المعدة، وبوابها يغلق عند اشتماله على الغذاء مدة هضمه ويقال لباطن جرم المعدة: خمل المعدة.

والأمعاء المصارين، وهو جمع مصران - بضم الميم - وهو جمع مصير، وسمي مصيرًا لمصير الغذاء إليه والسفلى يقال لها: الأقتاب ومنه قوله ﷺ، «**فتندلق أقتاب بطنه**[(١)]»والعليا أرق من السفلى، لما تقدم من الحكمة[(٢)].

فأعلى الرقاق يسمى الإثني عشر، لأن مساحته إثناء عشر إصبعًا، ويليه المسمى بالصائم لقلة لبث الغذاء فيه، لا لأنه يوجد أبدًا خاليًا كما ظنه بعضهم، فإن هذا باطل حسًا وشرعًا كما سنذكره.

والثالث- المسمى بالرقيق واللفائف، وهو أطول الأمعاء وأكثرها تلافيفًا ولبث الغذاء فيه أطول والعروق التي تأتيه من الكبد أقل، وأما اللذان قبله فمنتصبان في طول البدن قصيران، ويقل لبث الغذاء فيهما، وهو في الصائم أقل لبثًا، وهذه الثلاثة تسمى الأمعاء العليا، والأمعاء الرقاق، وهي كلها في سعة البواب.

وأما الدامع - وهو الأول من الثلاثة السفلى- فيسمى الأعور لأنه لا منفذ له، بل هو كالكيس يخرج منه ما دخل من حيث دخل وحكمته سبحانه أنه يتم فيه ما يعسر هضمه من الأشياء الصلبة كما يتم ذلك في قوانص الطيور، ووضعه في الجانب الأيمن.

والخامس- المسمى بقولون يبتدىء من الجانب الأيمن ويأخذ عرضًا إلى الأيسر ويحتبس فيه الثفل[(٣)] وربما يستقضي ما فيه.

---

(١) رواه مسلم برقم [٢٩٨٩].

(٢) السابق [٣١٦-٣١٧].

(٣) الثفل: ما استقر تحت الماء من كدر ونحوه.

والسادس- هو الآخر، وهو المعي المستقيم، لأنه مستقيم الوضع في طول البدن وهو واسع جدًا يجتمع فيه الثفل، كما يجتمع البول في المثانة، وعليه الفضلة المانعة لخروج الثفل بدون الإرادة وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: «**المؤمن يأكل في معيٍّ واحد والكافر يأكل في سبعة أمعاء**»[١]، فأطلق على المعدة اسم المعيِّ تغليبًا ولمشابهتها بالأمعاء لكون كل واحد من الأمعاء والمعدة محلًا للغذاء، وهذا لغة العرب كما يقولون: القمران[٢]، والعمران[٣]، والركنان اليمانيان[٤]، والشاميان[٥]، والعراقيان[٦]، ونظائر ذلك، ولا سيما فإن تركيب الأمعاء كتركيب المعدة، إذ هي مركبة من طبقتين، لحمية خارجية، وعصبية داخلة، والطبقة الداخلية فيها لزوجات متصلة بها لتقيها من حر ألم البراز ورداءته كثيفة، فلا تمسكه، ولا يتعلق بها شيء منه ولما كان الكافر ليس في قلبه شيء من الإيمان والخير يغتذي به انصرفت قواه ونهمته كلها إلى الغذاء الحيواني البهيمي، لما فقد الغذاء الروحي القلبي، فتوفرت أمعاؤه وقواه على هذا الغذاء واستفرغت أمعاؤه هذا الغذاء وامتلأت به بحسب استعدادها وقبولها، كما امتلأت به العروق والمعدة، وأما المؤمن، فإنه إنما يأكل الأكلة ليتقوى بها على ما أمر به فهمته وقواه مصروفة إلى أمور وراء الأكل، فإذا أكل ما يغذيه ويقيم صلبه استغنى قلبه ونفسه وروحه بالغذاء الإيماني عن الاستكثار من الغذاء الحيواني، فاشتغل معاه الواحد - وهو قولان - بالغذاء فأمسكه حتى أخذت منه الأعضاء والقوى مقدار الحاجة، فلم يحتج إلى أن يملأ أمعاءه كلها من الطعام وهذا أمر معلوم بالتجربة، وإذا قويت مواد الإيمان ومعرفة

---

(١) رواه البخاري برقم [٥٣٩٣]، ومسلم برقم [٢٠٦٠].

(٢) القمران: الشمس والقمر.

(٣) العمران: أبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما.

(٤) اليمانيان: الركن الذي به الحجر الأسود، والركن اليماني المجاور له.

(٥) الشاميان: هما الركنان الآخر ناحية الحجر وبينهما مزاب الكعبة.

(٦) العراقيان: هما الركن اليماني والذي يليه من الجهة الغربية، لأنهما يحاذيان الطريق.

الله وأسمائه وصفاته ومحبته، والشوق إلى لقائه في القلب استغنى بها العبد عن كثير من الغذاء، ووجد لها قوة تزيد على قوة الغذاء الحيواني، فإن كثف طبعك عن هذا وكنت عنه بمعزل، فتأمل حال الفرح والسرور يتجدد نعمة عظيمة واستغناؤك مدة عن الطعام والشراب مع وفور قوتك وظهور الدموية على بشرتك وتغذية بالسرور، والفرح، ولا نسبة لذلك إلى فرح القلب ونعيمه، وابتهاج الروح بقربه تعالى ومحبته ومعرفته كما قيل:

لَهَا أَحَادِيثُ مِنْ ذِكْرَاكَ تَشْغَلُهَا عَنِ الطَّعَامِ وَتُلْهِيهَا عَنِ الزَّادِ

وقد قال ﷺ في الحديث المتفق على صحته «**إني أظل عند ربي يطعمني ويسقيني**»[1] وصدق الصادق المصدوق صلوات الله وسلامه عليه، فإن المقصود من الطعام والشراب التغذية الممسكة، فإذا حصل له أعلى الغذاءين وأشرفهما وأنفعهما فكيف لا يغنيه عن الغذاء المشترك؟! وإذا كنا نشاهد أن الغذاء الحيواني يغلب على الغذاء القلبي الروحي حتى يصير الحكم له، ويضمحل[2] هذا الغذاء بالكلية، فكيف لا يضمحل غذاء البدن عند استيلاء غذاء القلب، والروح، ويصير الحكم له؟ وقد كان ﷺ يمكث الأيام لا يطعم شيئًا وله قوة ثلاثين رجلًا ويطوف مع ذلك على نسائه كلهن في ليلة واحدة، وهن تسع نسوة وهذا المسيح بن مريم عليه السلام حَيٌّ لم يمت، وغذاؤه من جنس غذاء الملائكة وأنت تشاهد المريض يمكث الأيام العديدة لا يأكل ولا يشرب لاشتغال نفسه بمحاربة المرض ومدافعته، واكتفاء الطبيعة ببقية الغذاء الذي في الأمعاء والمعدة مدة الحرب، فإذا وضعت الحرب أوزارها رأيت

---

(١) رواه البخاري برقم [١٩٦٥]، ومسلم برقم [٧٧٤].

(٢) يضمحل: يزول ويذوب.

شدة طلبه للغذاء فالخائف والمحب، والفرح، والحزين، والمستولي عليه الفكر لا تطالبه نفسه بشيء من الغذاء كالخالي من ذلك[١].

العبر والعجائب في آلات الغذاء:

وإذا نظر العبد إلى غذائه فقط في مدخله ومستقره ومخرجه رأى فيه العبر والعجائب كيف جعلت له آلة يتناول بها ثم باب يدخل منه ثم آلة تقطعه صغارًا ثم طاحون يطحنه ثم أعين بماء يعجنه ثم جعل له مجرىً وطريقًا إلى جانب النفس ينزل هذا ويصعد هذا، فلا يلتقيان مع غاية القرب ثم جعل له حوايا وطرقًا توصله إلى المعدة، فهي خزانته وموضع اجتماعه ولها بابان باب أعلى يدخل منه الطعام، وباب أسفل يخرج منه تفله.

والباب الأعلى أوسع من الأسفل إذ الأعلى مدخل للحاصل والأسفل مصرف للضار منه، والأسفل منطبق دائمًا ليستقر الطعام في موضعه، فإذا انتهى الهضم فإن ذلك الباب ينفتح إلى انقضاء الدفع ويسمى البواب لذلك والأعلى يسمى فم المعدة، والطعام ينزل إلى المعدة منكبسًا، فإذا استقر فيها انماع وذاب.

ويحيط بالمعدة من داخلها وخارجها حرارة نارية، بل ربما تزيد على حرارة النار وينضج بها الطعام فيها كما ينضج الطعام في القدر بالنار المحيطة به ولذلك يذيب ما هو مستحجر كالحصا وغيره حتى يتركه مائعًا، فإذا أذابته علا صفوه الى فوق ورسى كدره إلى أسفل.

منافع المعدة:

والمعدة خزانة يستقر فيها الغذاء فتنضجه وتطبخه وتصلحه إصلاحًا آخر وطبخًا آخر غير الإصلاح والطبخ الذي توليته من خارج فأنت تعاني إنضاجه وطبخه وإصلاحه حتى تظن إنه قد كمل وإنه قد استغنى عن طبخ آخر وإنضاج آخر وطباخه الداخل

---

(١) السابق [٣١٨-٣٢٠].

ومنضجه يعاني من نضجه وطبخه ما لا تهتدي إليه ولا تقدر عليه فهو يوقد عليه نيرانًا تذيب الحصى وتذيب ما لا تذيبه النار وهي في ألطف موضع منك لا تحرقك ولا تلتهب وهي أشد حرارة من النار وإلا فما يذيب هذه الأطعمة الغليظة الشديدة جدًا حتى يجعلها ماء ذائبًا[١]؟!

المعدة وإرسالها معلوم كل عضو وقوامه:

ومن المعدة عروق متصلة بسائر البدن يبعث فيها معلوم كل عضو وقوامه بحسب استعداده وقبوله فيبعث أشرف ما في ذلك وألطفه وأخفه إلى الأرواح، فيبعث إلى البصر بصرًا، وإلى السمع سمعًا، وإلى الشم شمًا، وإلى كل حاسة بحسبها، فهذا ألطف ما يتولد عن الغذاء ثم ينبعث منه إلى الدماغ ما يناسبه في اللطافة والاعتدال ثم ينبعث من الباقي إلى الأعضاء في تلك المجاري بحسبها وينبعث منه إلى العظام والشعر والأظفار ما يغذيها ويحفظها، فيكون الغذاء داخلًا إلى المعدة، من طرق ومجار وخارجًا منها إلى الأعضاء من طرق ومجار، هذا وارد إليها وهذا صادر عنها حكمة بالغة ونعمة سابغة.

ولما كان الغذاء إذا استحال في المعدة استحال دمًا ومرة[٢] سوداء ومرة صفراء وبلغمًا اقتضت حكمته سبحانه وتعالى أن جعل لكل واحد من هذه الأخلاط مصرفًا ينصب إليه ويجتمع فيه ولا ينبعث إلى الأعضاء الشريفة إلا أكمله، فوضع المرارة مصبًا للمرة الصفراء ووضع الطحال مقرًا للمرة السوداء، والكبد تمتص أشرف ما في ذلك وهو الدم ثم تبعثه إلى جميع البدن من عرق واحد، ينقسم على مجار كثيرة يوصل إلى كل واحد من الشعور، والأعصاب، والعظام، والعروق، ما يكون به قوامه.

---

(١) «مفتاح دار السعادة» [٣٩٩].

(٢) المِرَّةُ: خلط من أخلاط البدن وهو المسمى المزاج.

ثم إذا نظرت إلى ما فيه، من القوى الباطنة والظاهرة، المختلفة في أنفسها ومنافعها رأيت العجب العجاب كقوة سمعه، وبصره، وشمه، وذوقه، ولمسه، وحبه، وبغضه، ورضاه، وغضبه، وغير ذلك من القوى المتعلقة بالإدراك والإرادة.

وكذلك القوى المتصرفة في غذائه كالقوة المنضجة له وكالقوة الماسكة له والدافعة له إلى الأعضاء والقوة الهاضمة له بعد أخذ الأعضاء حاجتها منه إلى غير ذلك من عجائب خلقته الظاهرة والباطنة.

أقسام آلات الغذاء:

وأما آلات الغذاء فثلاثة أقسام: آلة تقبل الغذاء وتصلحه وتفرقه وترسله إلى جميع البدن، وآلة تقبل فضلاته، وآلة تعين في إخراج ثفله وما لا منفعة في بقائه، فالآلات القابلة هي الفم، والمريء والبطن، والكبد، والعروق الموصلة إلى الكبد والعروق الموصلة منها إلى البدن.

الآلات القابلة للفضلات:

وأما الآلات القابلة للفضلات، فالمرارة تقبل ما لطف منها، والطحال يقبل كثيفها، والكلى والمثانة يقبلان المتوسط، والكبد موضوعة في الجانب الأيمن، وتأخذ يسيرًا للجانب الأيسر وهذا لحكمة بديعة، وهي أن القلب في الجانب الأيسر أقرب وهو معدن الحار الغريزي، فتجنب عند الكبد قليلًا، لئلا يتأذى بحرارتها وجعل في أوعية الغذاء قوى خادمة له، فالفم مع كونه يقطع الغذاء ويطحنه ويحيله ويغيره، والمريء مع كونه منفذا إلى المعدة يغيره تغييرًا ثانيًا والمعدة مع كونها خزانة حافظة له تنضجه وتطبخه وتغيره تغييرًا ثالثًا، وتهضمه، وتنفى منه ما لا يصلح وتخرجه وتدفعه إلى مخرج الثفل. فإن الطعام إذا استقر في المعدة اشتملت عليه، وانضمت غاية الانضمام، ثم أنضجته بحرارتها، ثم تتولاه الكبد، وتشتمل عليه، وتقلبه دمًا خالصًا ثم تقسمه على جميع الأعضاء قسمة عدل لا جور فيها، ولا حيف.

ولما كانت المعدة حوض البدن الذي يرده أجزاء البدن من كل ناحية اقتضت الحكمة الإلهية جعلها في وسطه، وخالص الغذاء يتأدى إلى الكبد من شعب كثيرة، ويجتمع في موضع واحد واسع يسمى باب الكبد، وجميع العروق التي تتصل بالمعدة والأمعاء والطحال تجتمع وترتقي إلى باب الكبد، والمعدة تجذب الموافق، ويبقى المخالف المنافي الذي عجزت قوتها عنه، ثم إن الكبد تصفيه وتنقيه بعد اجتذابه مرة أخرى وتنفى عنه غير الموافق.

وقد أعد الصانع الحكيم سبحانه لتنقية الدم من الكبد ثلاثة خدام، فارهين قائمين بالمرصاد، بلا كسل ولا فتور، وقد وضع كُلًا منها في المكان اللائق به، ونصبه نصبة بها يكون أمكن من عمله ولما استقر الغذاء في المعدة وطبخته وأنضجته صارت فضلاته ثلاثة: فضلة كالدردي الراسب، وفضلة كالرغوة والزبد الطافي وفضلة مائية، فجعل كل خادم من هذه الخدام الثلاثة على فضلة لا يتعداها إلى الأخرى ليجذبها من مجرى خادم الفضلة الخفيفة الطافية، وهي للصفرة المرارة، نصبها الرب تعالى فوق الكبد، لأن المجتذب هو الفضلة الطافية ومكانها فوق مكان الدردي الراسب، وخادم الفضلة التي هي كالدردي الراسب الطحال، ونصبه الخلاق العليم أسفل من باب الكبد، حيث كان ما يجتذبه من أسفل ولم يكن في الجانب الأيمن، لأن المعدة قد شغلت ذلك الجانب، وكان الجانب الأيسر خاليًا، فلم تعده فإذا نقى الدم من هاتين الفضلتين خدمه الخادم الثالث - وهو الكبد - وقد بقي أحمر نقي اللون مشرقًا نورانيًّا ويصل إليها من عرق عظيم يسمى الأجوف ثم يوزع من هناك على جهات البدن العليا والسفلى في مواضع كثيرة العدد، ما بين كبير وصغير ومتوسط، كلها تتصل بالعرق الأجوف وتمتاز منه، وما دام الدم في هذا العرق ففيه مائية غير محتاج إليها لأنها كانت مركبة في الغذاء، فلما وصل إلى مستقره استغنى عنها، فاحتاج ولا بد إلى إخراجها ودفعها، ولو لم يبادر إلى ذلك أضرت به فخلق الله سبحانه الكليتين يمتصان هذه الفضلة بعنقين طويلين، كالأنبوبتين

ويفرغانها في المثانة بعرقين آخرين وضعهما سبحانه أسفل من الكبد قليلًا، حيث يكون أمكن لتخليص المائية كما تروق العصارات، وأما المرارة، فوضعها الله سبحانه فوق الكبد لأنها بمنزلة السفنجة أو القطنة التي يقطف بها الدهن عن وجه الرطوبات، وأما الطحال، فوضعه أميل إلى أسفل؛ لأنه بمنزلة ما يجتذب الأشياء المصونة إذا رسبت.

نقاء الدم:

إذا تنقى الدم من هذه الفضلات كلها وعملت فيه هذه الخدم بقواها التي أودعها الله فيها هذا العمل، وأصلحته هذا الإصلاح عمل ملك الأعضاء والجوارح - وهو القلب - فيه عملًا آخر، فقصده بحرارة أخرى، وهي أقوى من حرارة الكبد.

قوى المعدة:

وجعل سبحانه في المعدة أربع قوى: قوة جاذبة للملائم، وقوة منضجة له، وقوة ممسكة له، وقوة دافعة للفضلة المستغنى عنها منه، ورئيس هذه القوى هي القوة المنضجة وسائرها خدم لها، وخصت المعدة عن سائر الأعضاء بأن أودع فيها قوة تحس بالعوز والنقصان، وخاصتها تنبيه الحيوان لتناول الغذاء عند الحاجة، وأما سائر الأعضاء فإنها تتغذى بالنبات باجتذاب الملائم إليها، ولما احتاجت المعدة إلى قوة وحس بالعوز ولم يكن ذلك إلا من معدن الحواس وهو الدماغ أتاها روح لعصب عظيم، فأنبت أكثرها في فمها وما يليه وباقيه مستقيًا حتى بلغ قعرها.

فإن قيل: فما الحكمة في أن باعد الله سبحانه بين المعدة والفم وجعل بينهما مجرى طويلًا وهو المريء وهلا اتصلت المعدة بالفم، واستغنت عن المريء؟ قيل: هذا من تمام حكمة الخالق وفيه منافع كثيرة، منها أن يحصل للغذاء تغير ما في طريق المجرى، فيلطف قبل وصوله إليها ومنها بعده عن آلة التنفس لئلا تعوقه وتعوق الصوت والكلام وأن لا

تنقلب المعدة إلى خارج عند شدة الجوع، كما يعرض ذلك للحيوان الشره إذا كان قصير العنق.

فإن قيل: فلم كانت إلى الجانب الأيسر أميل إلى الجانب الأيمن؟

قيل: ليتسع المكان على الكبد ولا ينحصر.

فإن قيل: فهلا كانت مستقيمة في وضعها، بل مال أسفلها إلى الجانب الأيمن؟

قيل: ليتسع المكان على الطحال حيث كان أخفض موضعًا من الكبد.

فإن قيل: فلم جعلت مستطيلة مدورة وجعلت مما يلي الصلب مسطحة؟

قيل: لما وضعها الله بين الكبد والطحال جعلها مستطيلة وكانت مستديرة لتتسع للطعام وللشراب، وكان أسفلها أوسع من أعلاها لذلك، وجعل لها مدخلًا وهو المريء ومخرجًا يسمى البواب وجعل، البواب أضيق من المريء؛ لأن ما تبتلعه يكون أصلب وأخشن مما تخرجه، فجعل مدخل الداخل أوسع من مخرج الخارج لإنضاجه في المعدة ولينه ولحكم أخر: منها أن لا ينزل منه الطعام والشراب قبل نضجه ولتقوى المعدة على حبسه وليخرج أولًا فأولًا لا دفعة واحدة، والمريء يتسع بالتدريج حتى يبلغ المعدة، ولذلك يظن أنه جزء منها، وأما البواب فإن الجزء الضيق منه يتصل بأسفلها الذي هو أوسعها ثم يتسع على التدريج ليسهل خروج الفضلة.

عجائب الكبد ووظائفه:

والكبد منطبقة على المعدة، محتوية عليها بزوائدها، لتسخنها والطحال يسخنها من الباب الأيسر والصلب يسخنها من خلف، والترائب من قدامها والترائب مؤلفة من طبقتين رقيقتين تنطبق إحداهما على الأخرى بشحم كثير، وهو غشاء الأمعاء كلها ولباسها ثم غشى البطن كله بغشاء واحد يقي الأحشاء، ويمنع من انفتاح المعدة والأمعاء بالرياح، ويربط جملة آلات الغذاء، ولم يجعل في الكبد تجويف، كتجويف القلب لتحتوي

على الدم احتواء ممكنًا وتحيله إحالة بليغة، وللكبد ثلاث شباك من العروق: شبكة بينها وبين المعدة والأمعاء وشبكة في مفرعها، وشبكة في مجذبها فالشبكة الأولى تجذب الغذاء وتحيله بعد أن أحاله وفي الشبكة الثانية يصير دمًا وفي الشبكة الثالثة يزداد صفاء وترويقًا وللكبد بالقلب والدماء اتصال بشظة من العصب خفية كنسج العنكبوت.

ولما كانت النفس المعدية بمنزلة حيوان عاد وحشي وكل جسم يموت، فلا بد أن تتصل به هذه النفس وتغذوه، بخلاف النفس المفكرة التي محلها الدماغ، وبخلاف النفس الغضبية التي محلها القلب، فالنفس المفكرة تستعين بالنفس الغضبية على تلك النفس الحيوانية العادية الوحشية - فاقتضت حكمة الخالق سبحانه أو وصل بين محل هذه الأنفس الثلاثة ليذعن بعضها لبعض.

ولا تنكر تسمية هذه القوى نفوسًا، فليس الشأن في التسمية، فأنت تجد فيك نفسًا حيوانية تطلب الطعام والشراب ونفسًا مفكرة سلطانها على التصور والعلم والشعور، ونفسًا غضبية سلطانها على الغضب والإرادة وتضرب كل واحدة منها فيما جعلت إليه وبعضها عون لبعض، فمحل النفس الحيوانية الكبد ومحل المفكرة الدماغ ومحل الغضبية القلب[١].

والكبد عضو لحمي تتخلله عروق رقاق وغلاظ، وعلى الكبد غشاء عصبي حساس يحيط بها وينثني إلى غلافه، والكبد هي الأصل في الغذاء، وآلات الغذاء خدم لها ومعينات، فإن الإنسان لما كان كالشجرة المستقلة جعل له ما يقوم مقام النهر الجاري في أصول الشجرة يسقيها، وهو الأمعاء، والمعدة بمنزلة العين، وتجري منها العروق مجرى السواقي، وعروق الكبد المتصلة بالأمعاء بمنزلة عروق الشجرة المتصلة بأرض الساقية تمتص الماء منها وتؤديه إلى الشجرة وأغصانها ورقها وثمارها، وهذه العروق تمص الماء من الطين والثرى، وكذلك عروق الكبد تمتص صفو الماء وخالصه من كليتيه، وتحيله إلى

(١) التبيان في أقسام القرآن [٣٠٤-٣٠٩].

طبيعة الأعضاء، كما تفعل عروق الشجرة وشكل الكبد شكل هلالي محدب من ظاهره، مقعر من باطنه وهي تحت الأضلاع الخمس ولها خمس شعب يقال لها الزوائد تحتوي على المعدة، كما تحتوي الكف بأصابعها على الشيء المقبوض ويقال للشعبة الصغيرة منها خاصة زائد الكبد وفي الصحيح عن النبي ﷺ «**إن سبعين ألفا من أهل الجنة يأكلون من زيادة كبد الحوت الذي هو طعامهم**»(١) وهذا يدل على عظم قدر هذه الزائدة، فما الظن بالكبد التي هي زائدته فكيف بالحوت الذي حواها؟

ومقعرها يسمى المورد لأنه يورد الغذاء من المعدة والأمعاء ويسمى باب الكبد، ثم تتشعب هذه العروق من جانبيه بشعب تتصل بالأمعاء وتسمى الجداول لشبهها بالسواقي الصغار، وتؤدي إلى نقرة عظيمة، ولهذه الجداول أغشية من فوقها ومن تحتها، فتستدير مع الأمعاء المتصلة بها، وتسمى هذه الأغشية وما تحتويه المرابط.

وأحرز الصانع سبحانه موضع الكبد ووضعها، بأن ربطها بالمعدة والأمعاء كلها بالعروق وبالغشاء الممدود على البطن الذي يشد جميعها، ووصل بها رباطات من جميع النواحي، وغشاؤها الرابط يتصل بالحجاب برباط قوي، ورباط الكبد بالحجاب صلب وثيق، لأن الكبد معلقة به، وهو أصلب من غشاء الكبد لشدة الحاجة إلى صلابته لأنه يحرز الكبد، والعرق الأجوف متى ناله آفة مات الحيوان كما تهلك أغصان الشجرة إذا أصاب ساقها آفة.

وجعل أَرَقَّ هذه الرباطات من خلف؛ لشده بالعظام، وأَغْلَظَهُ من قُدَّام حيث لا عظام هناك تقيه وهذا من شدة الأسر الذي قال الله تعالى فيها: ﴿أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ﴾ [الإنسان: ٢٨] شد أوصالهم بالرباطات المحكمة وجعل خلقهم بعضه موصولًا ببعض ولما كان الحجاب آلة شريفة للنفس بُوعِدَ من العضوين المجاورين له - وهما

(١) تخريج الحديث من الصفحة التالية.

المعدة والكبد - بمقدار حاجته، لئلا يزحماه ويعوقاه عن فعله، فبوعدت المعدة عنه بطول مجراها[١].

منفعة الكبد

وجعل الكبد للتخليص وأخذ صفو الغذاء والطفه ثم رتب منها مجاري وطرقًا يسوق بها الغذاء إلى كل عضو وعظم وعصب ولحم وشعر وظفر، وجعل المنازل والأبواب لإدخال ما ينفعك وإخراج ما يضرك، وجعل الأوعية المختلفة خزائن تحفظ مادة حياتك، فهذه خزانة للطعام وهذه خزانة للحرارة وهذه خزائن للدم وجعل منها خزائن مؤديات لئلا تختلط بالخزائن الأخر، فجعل خزائن للمرة السوداء، وأخرى للمرة الصفراء، وأخرى للبول، وأخرى للمني، فتأمل حال الطعام في وصوله إلى المعدة وكيف يسري منها في البدن فإنه إذا استقر فيها اشتملت عليه وانضمت فتطبخه وتجيد صنعته ثم تبعثه إلى الكبد في مجار دقاق.

وقد جعل بين الكبد وبين تلك المجاري غشاء كالمصفات الضيقة الأبخاش[٢] تصفيه، فلا يصل إلى الكبد منه شيء غليظ خشن، فينكؤها لأن الكبد رقيقة لا تحمل الغليظ، فإذ قبلته الكبد أنفذته إلى البدن كله في مجار مهيَّأة له بمنزلة المجاري المعدة للماء ليسلك في الأرض، فيعمها بالسقي ثم يبعث ما بقي من الخبث والفضول إلى مغايض[٣] ومصارف قد أعدت لها فما كان من مرة صفراء بعثت به إلى المرارة وما كان من مرة سوداء بعثت به إلى الطحال وما كان من الرطوبة المائية بعثت به إلى المثانة، فمن ذا الذي تولى ذلك كله وأحكمه ودبره وقدره فأحسن تقدير؟!

(١) السابق [٣١٠-٣١١].

(٢) الأبخاش هو الثقوب والفجوات.

(٣) المغايض: هي الفجوات والمجاري.

في أن صفاقات[١] عروق الكبد رقيقة:

وتأمل الحكمة في أن جعلت صفاقات عروق الكبد أرق من صفاقات سائر عروق البدن، لينفذ إلى الكبد جوهر الدم بسرعة، وهي مع ذلك غير محتاجة إلى الوقاية؛ لأن الكبد تحوزها بلحمها، وإنما وضعت مجاري المِرَّةَ الصفراء بعد العروق التي تصعد الغذاء من المعدة، وقبل العروق التي تأخذ الدم منها، لأن هذا الموضع هو بين موضع كمال الطبخ، وبين موضع انتقاله إلى العرض الأجوف، وحينئذٍ يمكن انفصال المرة عن الدم، وجمعت العروق كلها إلى عرق واحد هو الباب، ثم عادت فتقسمت في مقعر الكبد، ثم عادت فجمعت في مدها إلى عرق واحد، وهو الأجوف، لتجيد بقسميها إنضاج ما تحتوي عليه ولئلا ينفذ بسرعة، وكذلك كل موضع احتيج فيه إلى طول مكث المادة هي بقاؤها فيه بطول مسلكها، وكثرة تعاريجه، كما فعل في مجاري المني، وشبكة الدماغ، وهذا شأن العروق الجواذب، وأما العروق الضوارب، فبالعكس من ذلك، فإنها جمعت في مقعر الكبد دون مُحْدَبِّها، لأنه موضع الدم وحاجته إلى التغذية بالحرارة ماسة قال جالينوس: ولا تقع العروق الضوارب في مجذب يعلم الخالق سبحانه أن جذبه الكبد، لأنها تتحرك دائمًا بمجاورة الحجاب فيقوم لها ذلك مقام حركة العروق الضوارب، وجعلت هذه العروق الضوارب رقاقًا لأنها إنما وضعت لترويح الكبد لا لتغذيتها ولا لاتصال روح إليها، إذ ليس بالكبد حاجة إلى قبول روح حيواني كثير، ولا يحتاج لحمها إلا إلى غذاء لطيف بخاري[٢].

والعرق الثاني ينقسم في مجذبها إلى عروق صغار، وأصغر منها حتى تبلغ غاية الرقة، ثم تعود وتجتمع أول فأول على قياس ما تفرق، وأخذ من كثرة إلى وحدة، ومن رقة إلى غلظ، حتى يجتمع منها العرق الخارج من الكبد المسمى بالأجوف، ومنها يتأدى الدم إلى

---

(١) الصفاق: الجلد الباطن تحت الجلد الظاهر.

(٢) السابق [٣٠٩-٣١١].

البدن كله وحين يخرج ينقسم إلى قسمين: فيأخذ أحدهما نافذا في الحجاب نحو القلب، ويسمى الوتين، قال أهل اللغة: الوتين عرق يسقي القلب قال في الصحاح: الوتين عرق في القلب، إذا انقطع مات صاحبه، وأصيب وتينه فهو موتون، وقال الواحدي: الوتين نياط القلب، وهو عرق يجري في الظهر حتى يتصل بالقلب، إذا انقطع بطلت القوى، ومات صاحبه وهذا قول جميع أهل اللغة وأنشدوا للشماخ:

إِذَا بَلَّغْتِنِي وَحَمَلْتِ رَحْلِي عَرابَةَ فَاشْرِقِي بِدَمِ الْوَتِينِ

وقال ابن عباس وجمهور المفسرين: هو حبل القلب ونياطه، وأما الأبهر الذي قال فيه النبي ﷺ: «**هذا أوان انقطاع أبهري**» فقال الجوهري: الأبهر عرق إذا انقطع مات صاحبه، وهما أبهران يخرجان من القلب، ثم تتشعب منهما سائر الشرايين، وأنشدوا للأصمعي:

وِلِلْفُؤَادِ وَجِيبٌ عِنْدَ أَبْهُرِهِ لِدَمِ الْغُلامِ وَرَاءَ الْغَيْبِ بِالْحَجِرِ[1]

مناقع الطحال:

وأما الطحال فبعضهم يقول: إنه لا نفع فيه، وإنما شغل المكان به لئلا يبقى فارغًا، فيميل أحد شقي البدن بثقل الكبد، فجعل موازنًا للكبد.

قلت: وهذا غلط من وجه وصواب من وجه: أما الصواب، فمن الحكم العجيبة جعل الطحال في الجانب الأيسر على موازنة الكبد، لئلا يميل الشق الأيمن بها، ولا يمكن أن تقوم المعدة بموازنة الكبد لأنها دائمًا تمتلىء وتخلو، فتارة تكون أخف من الكبد، وتارة أرجح منها، فيصير البدن مترجحًا، أو يميل إلى شق الكبد وقتًا، وإلى شق المعدة وقتًا آخر، فجعل الخالق سبحانه الطحال يوازن الكبد، وجعل المعدة بينهما في الوسط،

(١) «التبيان في أقسام القرآن» [٣٢١-٣٢٢].

لئلا يثقل جانب ويخف جانب آخر عند امتلائها وخلوها، فلما جعلت وسطًا لم يختلف وضع البدن باختلافها.

وأما الغلط فقوله: إنه لا منفعة فيه، وإنما يشغل المكان؛ لئلا يبقى فارغًا، فإنه وإن لم يعلم فيه منفعة، لم يكن له أن ينفيها، فإن عدم العلم بالمنفعة لا يكون علمًا بعدمها، ولا شيء في البدن خال عن المنفعة البتة، وفي الطحال من المنافع أنه يجذب الفضلة الغليظة العكرة السوداء من الكبد نوعًا من جنس العروق كالعنق له، فإذا حصلت تلك الفضلة عنده أنضجها وأحالها، وهو ينضج غليظ الدم وعكره كما ينضج القولون غليظ الغذاء ويابسه، ويستعمل في فعله العروق والضوارب الكثيرة المبثوثة فيه كلها، فما نضج واستحال إلى طبيعته صار غذاء له وما لم يمكن أن ينقل إلى الدم الموافق له قذفه إلى المعدة بعنق آخر من جنس العروق، وإنما أمكنه جذب الفضل الأسود بقوة لحميته، لأنه رخو متحلحل[1] خفيف كالإسفنج ولما اتصلت به العروق الضوارب الكثيرة استغنى بها عن إنضاج الفضول السوداء، ليبقى لحمه خفيفًا متحلحلًا؛ لأن دم الشرايين رقيق، لطيف قريب، طبيعته البخار، فما اغتذى به كان نحيفًا كالرئة، ولكن الرئة تغتذي بما صفا ورقَّ وأشرق وكان أحمر ناريًّا وكذلك الرئة كانت أخف وزنًا منه وأسخف[2] جرمًا ومائلة إلى البياض، وأما الطحال فيغتذي بماء لطيف من الخلط الأسود المنطبخ في الشرايين، فيستريح منه البدن ويغتذي به الطحال، فالطحال يغتذي بغذاء لطيف من غذاء الكبد لأنه يرشح إليه من الشرايين التي صفا فأيها يحبه جدًا، ولأجل سواد تلك الفضلة وكونها عكرة في الأصل، لم يكن لون الطحال أحمر ولا مشرقًا فأما الكبد فتتغذي بدم غليظ، فاضل يرشح إليها من العروق غير الضوارب، فلجودة غذائها كان لونها أحمر، ولفضلته كانت كثيفة فالكبد تغتذي بدم أحمر غليظ والطحال بدم أسود لطيف،

(١) الرخو: الهش اللين من كل شيء والمتحلحل: المتحرك.

(٢) سخف الشيء: أي رقَّ وضعف.

والرئة بدم صاف مشرق، في غاية النضج، قريب من طبيعة الروح، فجوهر كل عضو على ما هو عليه غذاؤه، ملائمًا له، فالغاذي شبيه بالمغتذي في طبعه وفعله، وهذا كما أن حكمة الله سبحانه في خلقه فيه جرت حكمته في شرعه وأمره؛ حيث حرم الأغذية الخبيثة على عباده؛ لأنهم إذا اغتذوا بها صارت جزءًا منهم فصارت أجزاؤهم مشابهة لأغذيتهم، إذ الغاذي شبيه بالمغتذي، بل يستحيل إلى جوهره، فلهذا كان نوع الإنسان أعدل أنواع الحيوان مزاجًا لاعتدال غذائه، وكان الاغتذاء بالدم ولحوم السباع يورث المغتذي بها قوة شيطانية سبعية عَادِيَةٌ على الناس، فمن محاسن الشريعة تحريم هذه الأغذية وأشبهاهها، إلا إذا عارضها مصلحة أرجح منها كحال الضرورة، ولهذا لما أكلت النصارى لحوم الخنازير، أورثها نوعًا من الغلظة والقسوة وكذلك من أكل لحوم السباع والكلاب صار فيه قوتها، ولما كانت القوة الشيطانية عارضة ثابتة لازمة لذوات الأنياب من السباع حرمها الشارع، ولما كانت القوة الشيطانية عارضة في الإبل أمر بكسرها بالوضوء لمن أكل منها، ولما كانت الطبيعة الحمارية لازمة للحمار حرم رسول الله ﷺ لحوم الحمر الأهلية ولما كان الدم مركب الشيطان ومجراه حرمه الله تعالى تحريمًا لازمًا.

فمن تأمل حكمة الله سبحانه في خلقه وأمره، وطبق بين هذا وهذا فَتحًا له بابًا عظيمًا من معرفة الله تعالى وأسمائه وصفاته، وهذا هو الذي حركنا لبسط القول في هذا المقام الذي لا يكاد يرى فيه إلا أحد طريقين: طريق طبيب معترض للوحي مقلد لبقراط وطائفته، قد عبرت عينه على الرسل وما جاءوا به وهو ممن قال تعالى فيه: ﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [غَافِر: ٨٣]. وطريق من يجحد ذلك كله ويكذب قائله ويظن منافاته للشريعة فيجحد حكمة الله تعالى في خلقه وإبداعه في صنعه وكلا الطريقين مذموم، وسالكه من الوصول إلى الغاية محروم، فلا نكذب بشرع الله ولا نجحد حكمة الله، وأكثر ما أفسد الناس أنهم لم يروا إلا طبائعيًّا زنديقًا منحلًّا عن الشرائع، أو متساهلًا قادحًا فيما جرت به حكمة الله

ومشيئته في خلقه، منكرًا للقوى والطبائع والأسباب والحكم والتعليل فإذا أراد الأول أن يدخل في الإسلام صده جهل هؤلاء ومكابرتهم للعقول والحس،وإذا أراد الآخر أن يدخل في معرفة الحكم والغايات، وما أودع الله في المخلوقات من المنافع والقوى والأسباب صده زندقة هؤلاء وكفرهم، وإعراضهم عما جاءت به الرسل وقدحهم فيما عندهم من العلم، فيختار دينه على عقله، ويختار ذلك عقله وما استقر عنده، مما لا يكابر فيه حسه ولا عقله على الدين وهذا قد بلى خلق الأطباء والطبائعيين فهو عنده أحد أنواع أدلة التوحيد والمعاد وصفات الخالق، وما أخبرت به الرسل هو من أظهر أدلته ولا يزداد الباطن فيه إلا إيمانًا، وما أخبرت به الرسل لا يناقض ما جرت به عادة الله وحكمته في خلقه: من نصب الأسباب وترتيب مسبباتها عليها بعلمه وحكمته، فمصدر خلقه وأمره علمه تعالى وحكمته، وآلاء الرب تعالى لا تتعارض ولا تتناقض ولا يبطل بعضها بعضًا والله أعلم.

الكبد والطحال متقابلان والمعدة بينهما:

والكبد والطحال متقابلان، والمعدة بينهما والعروق الضوارب تتصل بها المعدة، والقلب بمنزلة التنور، أو بمنزلة أتون الحمام يسخن ماءه وله إلى كل بيت منفذ ينفذ منه، وهج النار إليه وكذلك الحار العزيزي الذي منبعه من القلب ينفذ في مسالك ومنافذ إلى جميع الأعضاء فيسخنها.

الأعضاء مسالك قوية:

وجعلت الأعضاء مسلكًا مؤديًا، والمعدة هي الآلة لهضم الغذاء واستمرائه، والأمعاء تؤدي ذلك إلى الكبد، ولما كانت الأمعاء آلة الأداء والاتصال كثرت لفائفها وطولها، وكانت العروق التي تأتيها من الكبد لا تحصى كثرة، لينفذ فيها الغذاء أولًا فأولًا وتفيضه يسيرًا، يسيرًا، فلولا تطويل لفائف الأمعاء؛ لكان يخرج قبل أخذ خاصيته، وكان يعرض إليهم بشهوة الأكل دائمًا وكان الإنسان يعدم التفرغ لمصالحه وسائر أعماله، وكان

دائمًا مكبًّا على الغذاء، ولهذا صار الحيوان الذي ليس لأمعائه استدارات، بل له معي واحد مستقيم، مكبًا على الغذاء دائمًا، عديم الصبر عنه كالفيل، وأما ما لامعائه استدارات فإنه إذا فارقه الغذاء أو بعضه في الاستدارة الأولى صادفه في الثانية، فإن هو فاته في الثانية صادفه في الثالثة والرابعة والخامسة كذلك، فيمكن صبره على الغذاء حكمة بالغة.

وما ينفذ إلى الأمعاء يبعث من العروق الضاربة ويأخذ من الغذاء جزءًا يسيرًا لطيفًا، وأما العروق غير الضاربة فهي مجاري الغذاء بالحقيقة، فأخذت أكثره وأما العروق الضاربة، فجعلت مسلكًا للأرواح المنبعثة من القلب، فاستغنت بقليل الغذاء، وجعل للقلب وصلة بالأمعاء ليحسنها أولًا ويمدها بقوة الحار بإذن خالقه، ثم يأخذ منها الجزء الملائم من الغذاء المستغنى عن فعل الكبد للطافة جوهره، فإن هذا الجزء لو حصل في الكبد لم يؤمن إحراقه وفساده، فلا ينتفع به القلب ثم يأخذ منها شدة الحاجة وصدق المجاعة، فيتعجل ذلك من أدنى المواضع ولذلك يشاهد من بعد أكل مسنعبة[١] شديدة يحس بزيادة ونماء في كل أعضائه حتى يمر الطعام بالمعدة قبل استقراره فيها فسبحان من أتقن ما صنع.

ولما كانت المعدة آلة هضم الغذاء، والأمعاء آلة دفعه جعل للأمعاء طبقتان، ليقوى دفعها بهما جميعًا وليكون حرزًا لها وحفظًا ولذلك من تعرض له قرحة الأمعاء بانجراد أحد الصفاقين يبقى الآخر سليمًا، وجعلت الأمعاء الغلاظ لقذف الثفل، والرقاق لتأدية الغذاء، والسبب في أن صار الإنسان لا يحتاج إلى تناول الغذاء دائمًا كثرة لفائف أمعائه، والسبب المائع من قذف الفضول دائمًا سعة الأمعاء الغلاظ التي تقوم لها مقام وعاء آخر، شبيه بالمعدة في السعة كما أن المثانة وعاء للبول كذلك[٢].

(١) المسغبة: المجاعة.

(٢) السابق [٣١١-٣١٥].

منفعة المرارة:

والمرارة موضوعة على الكبد ولها مجريان: أحدهما متصل بتقعير الكبد، يجتذب المرة الصفراء، والآخر يتصل بالأمعاء العليا، يصب في المرة ليغسلها ويجليها، ويتصل منه السر بأسفل المعدة ليمتزج بالغذاء فيكون فيه معونة على هضمه.

وظيفة المرارة السوداء:

وأما المرارة السوداء، فخليط بارد يابس، وفيه من المنافع أنه ينفذ مع الدم في العروق ليشده ويقويه ويكفيه ويمسكه ويمنعه من سهولة الحرمة عند الحاجة إلى ذلك، ويعينه على تغذية الأعضاء المحتاجة أن يكون في غذائها شيء من السوداء، كالعظام، وما اتصل منه واستغنى عنه يصفى إلى الطحال فيصفيه الطحال جدًا، ويتغذى به ثم يجلب ما يستغني عنه الطحال إلى فم المعدة فيدغدغه بالحموضة التي فيه فتتحرك الشهوة ويحس بالجوع، فتطلب الأعضاء القصوى معلومها وراتبها من الأعضاء التي تليها وتطلبه الأعضاء التي تليها، من التي تجاورها وهكذا حتى ينتهي الطلب إلى المعدة، فالجوع طلب الأعضاء القصوى معلومها من الأعضاء الدنيا.

البلغم ومنافعه:

وأما البلغم، فخليط فج لين، يستكمل نضجه عند عوز الغذاء إذ تولته الحرارة الغريزية، فهضمته وصيرته دمًا فيكون في المعدة والأمعاء، وفي الكبد عند قصور الهضم، وفيه من المنفعة أنه يرطب البدن ويبل المفاصل، لسلس حركاتها، ويخالط الدم في تغذية الأعضاء البلغمية المزاج كالدماغ.

ولما كانت الأعضاء محتاجة أن يكون قريبًا منها لترطيبها لم يجعل له عضو يختص به لاسيما والأعضاء تغتذي به إذا أعوزها الغذاء.

وأما البلغم، فخليط فج مستعد لين، يستكمل نضجه عند عوز الغذاء إذ تولته الحرارة الغريزية، فهضمته وصبرته دما فيكون في المعدة والأمعاء، وفي الكبد عند قصور الهضم، وفيه من المنفعة أنه يرطب البدن ويبل المفاصل، لسلس حركاتها، ويخالط الدم في تغذية الأعضاء البلغمية المزاج كالدماغ.

ولما كانت الأعضاء محتاجة أن يكون قريبًا منها لترطبها لم يجعل له عضو يختص به لا سيما والأعضاء تغتذي به إذا أعوزها الغذاء.

الصفراء وحاجة البدن إليها:

وأما الصفراء، فخليط لطيف حار وحاجة البدن إليها في أن تخالط الدم وترقه بلطفها، وتنفذه في المسالك الضيقة، ولتعينه في تغذية الأعضاء الحارة اليابسة، وما ينفصل عنها مما يستغني عنه يتصفى إلى المرارة لتأخذ نصيبها منه، وما تستغني عنه المرارة تصبه إلى الأمعاء ليغسلها عن لطخة الأثفال ولزوجتها، ولتدع عضل المقعدة فيحس بالحاجة إلى التبرز[١].

الحكمة في خلق القلب والكبد والرئة والأمعاء والمثانة:

ومن عجائب خلقه أنه جعل في الرأس ثلاث خزائن نافذًا بعضها إلى بعض خزانة في مقدمه وخزانة في وسطه، وخزانة في آخره، وأودع تلك الخزائن من أسراره ما أودعها من الذكر والفكر والتعقل.

ومن عجائب خلقه ما فيه من الأمور الباطنة التي لا تشاهد كالقلب ،والكبد، والطحال، والرئة، والأمعاء، والمثانة، وسائر ما في بطنه من الآلات العجيبة والقوى المتعددة المختلفة المنافع.

---

(١) السابق [٣٢٢-٣٢٤].

فأما القلب فهو الملك المستعمل لجميع آلات البدن والمستخدم لها فهو محفوف بها محشود مخدوم مستقر في الوسط وهو أشرف أعضاء البدن، وبه قوام الحياة وهو منبع الروح الحيواني والحرارة الغريزية وهو معدن العقل والعلم والحلم والشجاعة والكرم والصبر والاحتمال والحب والإرادة والرضا والغضب وسائر صفات الكمال، فجميع الأعضاء الظاهرة والباطنة وقواها إنما هي جند من أجناد القلب فإن العين طليعته ورائده الذي يكشف له المرئيات فإن رأت شيئًا أدته إليه ولشدة الارتباط الذي بينها وبينه إذا استقر فيه شيء ظهر فيها، فهي مرآته المترجمة للناظر ما فيه كما أن اللسان ترجمانه المؤدي للسمع ما فيه.

ولهذا كثيرًا ما يقرن سبحانه في كتابه بين هذه الثلاث كقوله: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾[الإسراء:٣٦]. وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً ٱلزِّنَ﴾[الأحقاف:٢٦]. وقوله: ﴿صُمُّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ﴾[البقرة:١٨]. وقد تقدم ذلك وكذلك الأذن هي رسوله المؤدي إليه وكذلك اللسان ترجمانه.

وبالجملة، فسائر الأعضاء خدمه وجنوده وقال النبي ﷺ: «**ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح سائر الجسد، وإذا فسدت فسد سائر الجسد، ألا وهي القلب**[(١)][(٢)]».

وقال أبو هريرة: القلب ملك والأعضاء جنوده، فإن طاب الملك طابت جنوده وإذا خبث الملك خبثت جنوده[(٣)].

---

(١) رواه البخاري برقم [٥٢]، ومسلم برقم [٢٩٩].

(٢) «مفتاح دار السعادة» [٢٩٩].

(٣) أخرجه البيهقي في «الشعب» (١٠٩)، وقال: هكذا جاء موقوفًا، ومعناه في القلب جاء في حديث النعمان بن بشير مرفوعًا.

وجعلت الرئة له كالمروحة تروح عليه دائمًا لأنه أشد الأعضاء حرارة، بل هو منبع الحرارة.

وأما الدماغ وهو المخ، فإنه جعل باردًا واختلف في حكمة ذاك فقالت طائفة: إنما كان الدماغ باردًا التبريد الحرارة التي في القلب ليردها عن الإفراط إلى الاعتدال.

وردت طائفة هذا وقالت: لو كان كذلك لم يكن الدماغ بعيدًا عن القلب، بل كان ينبغي أن يحيط به كالرئة أو يكون قريبًا منه في الصدر ليكسر حرارته.

قالت الفرقة الأولى: بُعْدُ الدماغ من القلب لا يمنع ما ذكرناه من الحكمة لأنه لو قرب منه لغلبته حرارة القلب بقوتها، فجعل البعد بينهما بحيث لا يتفاسدان وتعتدل كيفية كل واحد منهما بكيفية الآخر وهذا بخلاف الرئة فإنها آلة للترويح على القلب لم تجعل لتعديل حرارته.

وتوسطت فرقة أخرى وقالت: بل المخ حار لكنه فاتر الحرارة وفيه تبريد بالخاصية فإنه مبدأ للذهن ولهذا كان الذهن يحتاج إلى موضع ساكن قَارٍّ صافٍّ عن الأقذار والكدر خال من الجلبة والزجل ولذلك يكون جودة الفكر والتذكر واستخراج الصواب عند سكون البدن وفتور حركاته وقلة شواغله ومزعجاته، ولذلك لم يصلح لها القلب وكان الدماغ معتدلًا في ذلك صالحًا له ولذلك تجود هذه الأفعال في الليل وفي المواضع الخالية وتفسد عند التهاب نار الغضب والشهوة وعند الهم الشديد ومع التعب والحركات القوية البدنية والنفسانية[١].

القلب ملك الجوارح:

ومن حجب الملك في الصدر وأجلسه هناك على كرسي المملكة وأقام جند الجوارح والأعضاء والقوى الباطنة والظاهرة في خدمته وذللها له فهي مؤتمرة إذا أمرها، منتهية

(١) السابق [٣٠٠]

إذا نهاها سامعة له مطيعة تكدح وتسعى في مرضاته، فلا تستطيع منه خلاصًا ولا خروجًا عن أمره، فمنها رسوله، ومنها بريده، ومنها ترجمانه، ومنها أعوانه، وكل منها على عمل لا يتعداه ولا يتصرف في غير عمله حتى إذا أراد الراحة أوعز إليها بالهدوء والسكون ليأخذ الملك راحته، فإذا استيقظ من منامه قامت جنوده بين يديه على أعمالها.وذهبت حيث وجهها دائبة لا تفتر، فلو شاهدته في محل ملكه والأشغال والمراسيم صادرة عنه وواردة والعساكر في خدمته والبرد[1] تتردد بينه وبين جنده ورعيته؛ لرأيت له شأنا عجيبًا.

فماذا فات الجاهل الغافل من العجائب والمعارف والعبر التي لا يحتاج فيها إلى طول الأسفار وركوب القفار قال تعالى: ﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات: ٢١]، فدعا عباده إلى التفكر في أنفسهم والاستدلال بها على فاطرها وباريها، ولولا هذا لم نوسع الكلام في هذا الباب ولا أطلنا النفس إلى هذه الغاية، ولكن العبرة بذلك حاصلة والمنفعة عظيمة والفكرة فيه مما يزيد المؤمن إيمانًا.

فكم دون القلب من حرس وكم له من خادم وكم له من عبيد ولا يشعر به، ولله ما خلق له وهيأ له وأريد منه وأعد له من الكرامة والنعيم أو الهوان والعذاب، فإما على سرير الملك في مقعد صدق عند مليك مقتدر ينظر إلى وجه ربه ويسمع خطابه وإما أسير في السجن الأعظم بين أطباق النيران في العذاب الأليم، فلو عقل هذا السلطان ما هُيِّئَ له لضن بملكه ولسعى في الملك الذي لا ينقطع ولا يبيد ولكنه ضربت عليه حجب الغفلة ليقضى الله أمرًا كان مفعولا[2].

ثم أنزل إلى الصدر معدن العلم، والحلم، والوقار، والسكينة، والبر، وأضدادها، فتجد صدور العلية تعلو بالبر والخير والعلم والإحسان، وصدور السفلة تغلي بالفجور والشرور، والإساءة، والحسد، والمكر.

---

(١) البُرد: جمع البريد وهو : حامل الرسائل.

(٢) السابق [٣١٣-٣١٤].

ثم انفذ من ساحة الصدر إلى مشاهدة القلب، تجد ملكًا عظيمًا جالسًا على سرير مملكته يأمر وينهى، ويولي ويعزل، وقد حف به الأمراء والوزراء والجند، كلهم في خدمته إن استقام استقاموا وإن زاغ زاغوا، وإن فسد فسدوا، فعليه المعول، وهو محل نظر الرب تعالى ومحل معرفته، ومحبته وخشيته، والتوكل عليه والإنابة إليه والرضى به وعنه، والعبودية عليه أولًا وعلى رعيته وجنده تبعًا، فأشرف ما في الإنسان قلبه، فهو العالم بالله الساعي إليه المحب له، وهو محل الإيمان والعرفان وهو المخاطب المبعوث إليه الرسل، المخصوص بأشرف العطايا من الإيمان والعقل، وإنما الجوارح أتباع للقلب يستخدمها استخدام الملوك للعبيد والراعي للرعية، والذي يسري إلى الجوارح من الطاعات والمعاصي، إنما هي آثاره فإن أظلم أظلمت الجوارح، وإن استنار استنارت ومع هذا، فهو بين إصبعين من أصابع الرحمن عز وَجَلَ[١].

فسبحان مقلب القلوب، ومودعها ما يشاء من أسرار الغيوب، الذي يحول بين المرء وقلبه ويعلم ما ينطوي عليه من طاعته ودينه، مصرف القلوب كيف أراد وحيث أراد أوحى إلى قلوب الأولياء أن أقبلي إلي فبادرت وقامت بين يدي رب العالمين وكره عز و جل انبعاث آخرين فثبطهم وقيل: اقعدوا مع القاعدين: كانت أكثر يمين رسول الله ﷺ «**لَا وَمُقَلِّبَ الْقَلُوبِ**»[٢] وكان من دعائه «**اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على طاعتك**»[٣] قال بعض السلف: القلب أشد تقلبًا من القدر إذا استجمعت غليانًا، وقال الآخر: القلب أشد تقلبًا من الريشة بأرض، فلاة في يوم ريح عاصف.

---

(١) «التبيان في أقسام القرآن» [٣٤٣-٣٤٤].

(٢) رواه البخاري برقم [٦٦٢٨].

(٣) رواه الترمذي برقم [٢١٤٠] وصححه الألباني في «صحيح الجامع» برقم [٧٩٨٧].

ويطلق القلب على معنيين:

أحدهما- أمر حسي وهو: العضو اللحمي الصنوبري الشكل، المودع في الجانب الأيسر من الصدر، وفي باطنه تجويف وفي التجويف دم أسود وهو منبع الروح.

والثاني- أمر معنوي وهو: لطيفة ربانية، رحمانية، روحانية، لها بهذا العضو تعلق واختصاص، وتلك اللطيفة هي حقيقة الإنسانية.

وللقلب جندان: جند يرى بالأبصار وجند يرى بالبصائر، فأما جنده المشاهد، فالأعضاء الظاهرة والباطنة، وقد خلقت خادمة له لا تستطيع له خلافًا فإذا أمر العين بالانفتاح انفتحت، وإذا أمر اللسان بالكلام تكلم، وإذا أمر اليد بالبطش بطشت، وإذا أمر الرجل بالسعي سعت، وكذا جميع الأعضاء ذُلِّلتْ له تذليلًا.

ولما خلق القلب للسفر إلى الله والدار الآخرة، وحصل في هذا العالم ليتزود منه، افتقر إلى المركب والزاد لسفره الذي خلق لأجله، فأعين بالأعضاء والقوى وسخرت له وأقيمت له في خدمته لتجلب له ما يوافقه من الغذاء، والمنافع، ويدفع عنه ما يضره، ويهلكه، فافتقر إلى جندين: باطن: وهو الإرادة والشهوة والقوى، وظاهر: وهو الأعضاء، فخلق في القلب في الإرادات والشهوات ما احتاج إليه، وخلقت له الأعضاء التي هي آلة الإرادة واحتاج في دفع المضار إلى جندين: باطن وهو الغضب الذي يدفع المهلكات، وينتقم به من الأعداء، وظاهر: وهو الأعضاء التي ينفذ بها غضبه، كالأسلحة للقتال ولايتم ذلك إلا بمعرفته ما يجلب وما يدفع، فأعين الجند من العلم بما يكشف له حقائق ما ينفعه وما يضره[1].

ولما سلطت عليه الشهوة والغضب والشيطان أعين بجند من الملائكة، وجعل له محل من الحلال ينفذ فيه شهواته، وجعل بإزائه أعداء له ينفذ فيهن غضبه، فما ابتلى بصفة

(١) السابق [٣٤٤-٣٤٥].

من الصفات إلا وجعل لها مصرفًا ومحلًا ينفذها فيه، فجعل لقوة الحسد فيه مصرفًا وهو المنافسة في فعل الخير والغبطة عليه، والمسابقة إليه ولقوة الكبر مصرفًا، وهو التكبر على أعداء الله تعالى وإهانتهم، وقد قال النبي ﷺ لمن رآه يختال بين الصفين في الحرب «**إنها لمشية يبغضها الله إلا في هذا الموطن**»[١] وقد أمر الله سبحانه بالغلظة على أعدائه.

وجعل لقوة الحرص مصرفًا وهو الحرص على ما ينفع كما قال النبي ﷺ «**احرص على ما ينفعك**»[٢] ولقوة الشهوة مصرفًا، وهو التزوج بأربع، والتسري بما شاء، ولقوة حب المال مصرفًا وهو إنفاقه في مرضاته تعالى، والتزود منه لمعاده، فمحبة المال على هذا الوجه لا تذم.

ولمحبة الجاه مصرفًا وهو استعماله في تنفيذ أوامره وإقامة دينه ونصر المظلوم، وإغاثة الملهوف، وإعانة الضعيف، وقمع أعداء الله، فمحبة الرياسة والجاه على هذا الوجه عبادة. وجعل لقوة اللعب واللهو مصرفًا، وهو لهوه مع امرأته، أو بقوسه وسهمه، أو تأديبه فرسه، وكل ما أعان على الحق، وجعل لقوة التحيل والمكر فيه مصرفًا، وهو التحيل على عدوه وعدو الله تعالى بأنواع التحيل حتى يراغمه، ويرده خاسئًا ويستعمل معه من أنواع المكر ما يستعمله عدوه معه.

وهكذا جميع القوى التي ركبت فيه، جعل لها مصرفًا وقد ركبها الله فيه لمصالح اقتضتها حكمته، ولا يطلب تعطيلها وإنما تصرف مجاريها من محل إلى محل، ومن موضع إلى موضع ومن تأمل هذا الموضع وتفقه فيه علم شدة الحاجة إليه وعظم الانتفاع به[٣].

---

(١) ذكره الهيثمي في «المجمع»(٦/ ١٠٩) ونسبه إلى الطبراني وقال: وفيه من لم أعرفه.

(٢) رواه مسلم برقم [٢٦٦٤].

(٣) «التبيان في أقسام القرآن» [٣٤٣-٣٤٧].

جماع أصول الخير والشر في القلب:

وجماع الطرق والأبواب التي يصان منها القلب وجنوده أربعة، فمن ضبطها وعدلها وأصلح مجاريها وصرفها في محالها اللائقة بها استفاد منها قلبه، وجوارحه ولم يشمت به عدوه: وهي الحرص، والشهوة، والغضب، والحسد، فهذه الأربعة هي أصول مجامع طرق الشر والخير، وكما هي طرق إلى العذاب السرمدي، فهي طرق إلى النعيم الأبدي فآدم أبو البشر عَلَيْهِ السَّلَامُ أخرج من الجنة بالحرص ثم أدخل إليها بالحرص، ولكن فرق بين حرصه الأول وحرصه الثاني، وأبو الجن أخرج منها بالحسد، ثم لم يوفق لمنافسة وحسد يعيده إليها، وقد قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالا وسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وأطراف النهار**»(١).

وأما الغضب، فهو غول العقل يغتاله كما يغتال الذئب الشاة، وأعظم ما يفترسه الشيطان عند غضبه وشهوته، وإذا كان حرصه إنما هو على ما ينفعه، وحسده منافسة في الخير وغضبه لله على أعدائه، وشهوته مستعملة فيما أبيح له وعونًا له على ما أمر به، لم تضره هذه الأربعة، بل انتفع بها أعظم الانتفاع.

في عجائب حال القلب مع الملك والشيطان:

وإذا تأملت حال القلب مع الملك، والشيطان، رأيت أعجب العجائب، فهذا يلم به مرة وهذا يلم به مرة، فإذا ألم به الملك حدث من لمته الانفساح، والانشراح، والنور والرحمة، والإخلاص والإنابة، ومحبة الله وإيثاره على ما سواه، وقصر الأمل، والتجافي عن دار البلاء، والامتحان، والغرور، فلو دامت له تلك الحالة لكان في أهنأ عيش وألذه وأطيبه، ولكن تأتيه لمة الشيطان، فتحدث له من الضيق والظلمة، والهم والغم، والخوف

---

(١) رواه البخاري برقم [٧٣١٦]، ومسلم برقم [٨١٥].

والسخط، على المقدور والشك في الحق، والحرص على الدنيا وعاجلها، والغفلة عن الله – ما هو من أعظم عذاب القلب.

ثم للناس في هذه المحنة مراتب، لا يحصيها إلا الله: فمنهم من تكون لمة الملك أغلب من لمة الشيطان وأقوى، فإذا ألم به الشيطان وجد من الألم والضيق، والحصر، وسوء الحال بحسب ما عنده من حياة القلب، فيبادر إلى طرد تلك اللمة ولا يدعها تستحكم، فيصعب تداركها فهو دائمًا في حرب بين اللمتين يدال له مرة ويدال عليه مرة أخرى والعاقبة للتقوى.

ومنهم من تكون لمة الشيطان أغلب عليه وأقوى، فلا تزال تغلب لمة الملك حتى تستحكم ويصير الحكم لها، فيموت القلب ولا يحس ما ناله الشيطان به مع أنه في غاية العذاب والضيق والحصر، ولكن سكر الشهوة والغفلة حجب عنه الإحساس بذلك الألم، فإذا كشف أمكنه تداركه بالدواء وحسمه وإن عاد الغطاء عاد الأمر كما كان، حتى ينكشف عنه وقت المفارقة للدنيا، فتظهر حينئذٍ تلك الآلام والهموم والغموم والأحزان، وهي لم تتجدد له وإنما كانت كامنة تواريها الشواغل، فلما زالت الشواغل ظهر ماكان كامنًا وتجدد له أضعافه.

لمة الشيطان، وكيفية دفعها:

والشيطان يلم بالقلب لما كان هناك من جواذب تجذبه، وهي نوعان: صفات وإرادات، فإذا كانت الجواذب صفات قوي سلطانه هناك، واستفحل أمره، ووجد موطئًا ومقرًّا، فتأتي الأذكار والدعوات والتعوذات كحديث النفس، لا تدفع سلطان الشيطان، لأن مركبه صفة لازمة، فإذا قلع العبد تلك الصفات وعمل على التطهر منها والاغتسال، بقي للشيطان بالقلب خطرات ووساوس ولمات من غير استقرار، وذلك يضعفه ويقوي لمة الملك فتأتي الأذكار والدعوات، والتعوذات، فتدفعه بأسهل شيء.

وإذا أردت لذلك مثالًا مطابقًا، فمثله مثل كلب جائع شديد، الجوع وبينك وبينه لحم أو خبز، وهو يتأملك ويراك لاتقاومه وهو أقرب منك، فأنت تزجره وتصيح عليه وهو يأبى إلا التحوم عليك، والغارة على ما بين يديك فالأذكار بمنزلة الصياح عليه والزجر له، ولكن معلومه ومراده عندك، وقد قربته عليك فإذا لم يكن بين يديك شيء يصلح له وقد تأملك، فرآك أقوى منه فإنك تزجره وتصيح عليه، فيذهب وكذلك القلب الخالي عن قوة الشيطان ينزجر بمجرد الذكر.

وأما القلب الذي فيه تلك الصفات التي هي مركبه وموطنه، فيقع الذكر في حواشيه وجوانبه، ولا يقوى على إخراج العدو منه، ومصداق ذلك تجده في الصلاة، فتأمل في الحال وانظر هل تخرج الصلاة بأذكارها وقراءتها الشيطان من قلبك، وتفرغه كله لله تعالى بكليته وتقيمه بين يدي ربه مقبلًا بكليته عليه يصلي لله تعالى، كأنه يراه قد اجتمع همه كله على الله، وصار ذكره ومراقبته ومحبته والأنس به في محل الخواطر والوساوس أم لا؟ والله المستعان.

صلاح الأبدان بصلاح القلوب:

القلب الصحيح هو القلب السليم الذي لا ينجو يوم القيامة إلا من أتى الله به كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨-٨٩]. والسليم هو السالم وجاء على هذا المثال لأنه للصفات كالطويل والقصير والظريف، فالسليم القلب الذي قد صارت السلامة صفة ثابتة له كالعليم والقدير وأيضًا، فإنه ضد المريض والسقيم والعليل.

وقد اختلفت عبارات الناس في معنى القلب السليم، والأمر الجامع لذلك أنه الذي قد سلم من كل شهوة تخالف أمر الله ونهيه ومن كل شبهة تعارض خبره، فسلم من عبودية ما سواه، وسلم من تحكيم غير رسوله، فسلم في محبة الله مع تحكيمه لرسوله في خوفه ورجائه والتوكل عليه والإنابة إليه والذل له وإيثار مرضاته في كل حال والتباعد

من سخطه بكل طريق، وهذا هو حقيقة العبودية التي لا تصلح إلا لله وحده، فالقلب السليم، هو الذي سلم من أن يكون لغير الله فيه شرك بوجه ما، بل قد خلصت عبوديته لله تعالى[١].

الحكمة في تركيب أعضاء البدن:

فأعد النظر في نفسك وتأمل حكمة اللطيف الخبير في تركيب البدن ووضع هذه الأعضاء مواضعها منه وإعدادها لما أعدت له وإعداد هذه الأوعية المعدة لحمل الفضلات وجمعها؛ لكيلا تنتشر في البدن، فتفسده ثم تأمل الحكمة البالغة في تنميتك وكثرة أجزائك من غير تفكيك ولا تفصيل ولو أن صائغًا أخذ تمثالًا من ذهب أو فضة أو نحاس، فأراد أن يجعله أكبر مما هو هل كان يمكنه ذلك إلا بعد أن يكسره ويصوغه صياغة أخرى، والرب تعالى ينمي جسم الطفل وأعضاءه الظاهرة والباطنة، وجميع أجزائه وهو باق ثابت على شكله وهيئته لا يتزايل ولا ينفك ولا تلمسه الأيدي ولا تصل إليه الآلات، فيخرج بشرًا سويًا مستوفيًا لكل ما فيه مصلحته وقوامه من عضو وحاسة وآلة من الأحشاء والجوارح والحوامل والأعصاب والرباطات، والأغشية، والعظام المختلفة الشكل والقدر والمنفعة، والموضع إلى غير ذلك من اللحم والشحم والمخ وما في ذلك من دقيق التركيب ولطيف الخلقة وخفي الحكمة وبديع الصنعة كل هذا صنع الله أحسن الخالقين في قطرة من ماء مهين.

وما كرر عليك في كتابه مبدأ خلقك وإعادته ودعاك إلى التفكر فيه إلا لما بك من العبرة والمعرفة ولا تستطل هذا الفصل وما فيه من نوع تكرار يشتمل على مزيد فائدة، فإن الحاجة إليه ماسة والمنفعة عظيمة، فانظر إلى بعض ما خصك به وفضلك به على البهائم المهملة إذ خلقك على هيئة تنتصب قائمًا، وتستوي جالسًا، وتستقبل الأشياء ببدنك، وتقبل عليها بجملتك، فيمكنك العمل والصلاح والتدبير، ولو كنت كذوات

(١) «إغاثة اللهفان» [١٥].

الأربع المكبوبة على وجهها لم يظهر لك فضيلة تمييز واختصاص ولم يتهيأ منك ما تهيأ من هذه النسبة.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠]، فسبحان من ألبس خلع الكرامة لبني آدم كلها من العقل والعلم والبيان والنطق والشكل والصورة الحسنة والهيئة والقوام المعتدل واكتساب العلوم بالاستدلال والفكر واقتناص الأخلاق الشريفة الفاضلة، من البر والطاعة والانقياد، فكم بين حاله وهو نطفة في داخل الرحم مستودع هنا وبين حاله والملك يدخل عليه في جنات عدن: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾.

[المؤمنون: ١٤]

فالدنيا قرية والمؤمن رئيسها والكل مشغول به ساع في مصالحه والكل قد أقيم في خدمته وحوائجه، فالملائكة الذين هم حملة عرش الرحمن ومن حوله يستغفرون له، والملائكة الموكلون به يحفظونه، والموكلون بالقطر والنبات يسعون في رزقه ويعملون فيه، والأفلاك سخرت منقادة دائرة بما فيه مصالحه، والشمس والقمر والنجوم مسخرات جاريات بحساب أزمنته وأوقاته، وإصلاح رواتب أقواته والعالم الجوي مسخر له برياحه وهوائه وسحابه وطيره وما أودع فيه والعالم السفلي كله مسخر له، مخلوق لمصالحه: أرضه، وجباله، وبحاره، وأنهاره، وأشجاره، وثماره، ونباته، وحيوانه، وكل ما فيه، كما قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ١٢-١٣].

قَالَ تَعَالَى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾

وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ [إبراهيم: ٣٢-٣٤].

فالسائر في معرفة آلاء الله وتأمل حكمته وبديع صفاته أطول باعًا وأملأ صواعًا من اللصيق بمكانه المقيم في بلد عادته وطبعه راضيًا بعيش بني جنسه لا يرضى لنفسه إلا أن يكون واحدًا منهم يقول لي أسوة بهم.

وهل أنا إلا من ربيعة أو مضر............

وليست نفائس البضائع إلا لمن امتطى غارب الاغتراب وطوف في الآفاق حتى رضي من الغنيمة بالإياب، فاستلان ما استوعره البطالون وأنس بها استوحش منه الجاهلون(١).

نعمة البيان:

وأما من عدم البيانين بيان القلب وبيان اللسان، فذلك بمنزلة الحيوانات البهيمة، بل هي أحسن حالًا منه، فإن فيها ما خلقت له من المنافع والمصالح التي تستعمل فيها وهذا يجهل كثيرًا مما تهتدي إليه البهائم ويلقى نفسه فيما تكف البهائم أنفسها عنه. وإن عدم بيان اللسان دون بيان القلب، ومن عدم خاصة الإنسان وهي النطق واشتدت المؤمنة به وعليه وعظمت حسرته وطال تأسفه على رد الجواب، ورجع الخطاب، فهو كالمقعد الذي يرى ما هو محتاج إليه ولا تمتد إليه يده ولا رجله.

فكم لله على عبده من نعمة سابغة في هذه الأعضاء والجوارح والقوى والمنافع التي فيه، فهو لا يلتفت إليها ولا يشكر الله عليها ولو فقد شيئًا منها لتمنى أنه له بالدنيا وما عليها، فهو يتقلب في نعم الله بسلامة أعضائه وجوارحه وقواه وهو عار من شكرها ولو

---

(١) «مفتاح دار السعادة» [٤٠٢-٤٠٣].

عرضت عليه الدنيا ما فيها بزوال واحدة منها لأبي المعاوضة وعلم أنها معاوضة غبن: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤][1].

أقسام الأعضاء:

ولما اقتضت حكمة الرب جل جلاله، وتقدست أسماؤه ولا إله غيره - حيث كان بدن الإنسان مشبهًا في أحواله بالمدينة - وأن يوجد فيه أعضاء رئيسية تقوم بمصالحها كما تقوم رؤساء المدينة بمصالحها، وتكون لها بمنزلة الولاة والأمراء، وأعضاء تكون خادمة لهذه الأعضاء الرئيسية، فإن الرئيس لا يكون رئيسًا إلا بمرؤوس، وهي بمنزلة الشرط والجلاوزة[2] والنقباء، وأن يوجد فيها أعضاء كالرعية، وهي قسمان: ما له اتصال بالرؤساء، وإن لم يكن له اتصال خدمة وما لا اتصال له بهم، بل هو مستقل بنفسه، فالأعضاء إذًا بهذا التقسيم أربعة:

أحدها- الأعضاء الرئيسية المخدومة.

الثاني- الأعضاء المرءوسة الخادمة.

الثالث- الأعضاء المرءوسة بلا خدمة.

الرابع- الأعضاء التي ليست رئيسة ولا مرءوسة.

الأعضاء الرئيسية

والأعضاء الرئيسية إنما استحقت الرياسة لشرفها، إذ كانت هي الأصول والمعادن والمبادئ للقوى الأولى في البدن، المضطر إليها في بقاء الشخص والنوع، وهي بحسب بقاء الشخص ثلاثة: القلب، والكبد، والدماغ، وبحسب بقاء النوع أربعة: الثلاثة المذكورة، والأنثيان.

---

(١) السابق [٤٠٦-٤٠٧].

(٢) الجلاوزة: جمع جلوز وهو الشرطي وتطلق على الضخم الشجاع.

وأما القلب، فهو الذي جعله الخلاق العليم قائمًا بأمر البدن، كقيام الملك بالرعية، وهو أول عضو يتحرك في البدن، وآخر عضو يسكن منه، وهو مبدأ جميع الخلق وما يلحقه من صلاح أو فساد يتأدى منه إلى غيره من الأعضاء.

وأما الكبد، فهي العضو التي تقوم لحفظ الحياة، إذ كانت هي التي تملأ الأعضاء بالغذاء ليبقى البدن محفوظًا ما أمكن بقاؤه

وأما الدماغ، فهو العضو القائم بأمر الحس والإدراك، وتكميل الحياة، إذ فيه آلات الإحساس التي بها يعرف النافع من الضار، الملائم من المنافر، وبه صارت الحياة نافعة صالحة، متجاوزة لزينة حياة النبات.

وأما الأنثيان، فهما اللذان يقومان لحفظ بقاء النوع[١].

الأعضاء الخادمة

وأما الأعضاء الخادمة، فالرئة والشرايين الحاملة المؤدية من القلب الحرارة الغريزية والقوى والأرواح الحيوانية، التي بها قوام البدن.

فهذان خادما القلب، والمعدة، والأوردة خادمان للكبد، والأوردة تنفذ الدم الغاذي والقوى إلى جميع البدن، والكبد خادمة الدماغ، وكذلك الأعصاب التي بها يحصل الحس والحركة، والأنثيان يخدمهما الأعضاء المؤدية للمني والمجاري المؤدية عنهما إلى موضع التوالد.

الأعضاء المرءوسة بلا خدمة

وأما الأعضاء المرءوسة، بلا خدمة فهي أعضاء مختصة بقوى لها طبيعة بها يتم تدبيرها، ويستقيم أمرها ولا يدفع ذلك أنه يقبض عليها من الأعضاء الرئيسية قوى تمدها بإذن الله تعالى، كالأذن والعين والأنف، فإن كل واحد منها يقوم بأمر نفسه بما

---

(١) «التبيان في أقسام القرآن» [٣٢٥-٣٢٦].

فيه من القوة الطبيعية التي أعطاها إياها الخالق سبحانه، ولا يتم ذلك إلا بأن تأتيها قوة حساسة تنزل عليها من الدماغ بإذن الله تعالى.

الأعضاء التي ليست برئيسة ولا مرءوسة

وأما الأعضاء التي ليست برئيسة ولا مرءوسة، فهي التي اختصت بقوى غريزية فيها من أصل الخلقة في أول التكوين، ليتم بها قوام أمرها وتدبيرها في جلب المنافع ودفع المضار، كالعظام والغضاريف وسائر الأعضاء المتشابهة الأجزاء، مثل الرباطات والأعصاب، والأوتار والشرايين والأوردة والأغشية، واللحم والعظام، كالأساس والأسطوانات لبناء هيكل البدن.

فإن قيل: هل في العظام قوة الإحساس وحياته أم لا؟

قيل: هذا موضع اختلف فيه أرباب الشريعة فيما بينهم، وأرباب الطبيعة فيما بينهم، فقالت طائفة: لا حياة في العظام وإن كان فيها قوة النمو والاغتذاء.

قالوا: إن الحياة إنما هي الروح الحيواني، ولا حظ للعظام فيه.

قالوا: ولأن مركب الحياة إنما هو الدم المنبث في العروق، والأعصاب، واللحم،[1] ولهذا لم يكن للشعر ولا للظفر نصيب من ذلك، ولهذا لم يألم الإنسان بأخذه.

قالوا : فحياة العظام والشعر حياة نمو واغتذاء، وحياة أعضاء البدن حياة نمو وإحساس.

قالوا: ولهذا قلنا إن العظام لا تنجس بالموت، لأنها لم يكن فيها حياة تزول بالموت.

قالوا: وزوال النمو لا يوجب نجاسة ما فارقه، بدليل يبس الزرع والشجر.

---

(١) السابق [٣٢٦-٣٢٧].

قال آخرون: الدليل على أن العظام تحلها الحياة قوله تعالى: ﴿قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [يس:٧٨-٧٩]. والحس يدل على ذلك أيضًا، فإن العظم يألم ويضرب ويسكن وذلك نفس إحساسه.

قالوا: ولا يمكن إنكار كون العظام فيها قوة حساسة تحس بالبارد والحار.

قال الآخرون: الإحساس والألم ليس للعظم في نفسه، وإنما هو لما جاوره من اللحم.

قال المنازعون لهم: هذا مكابرة ظاهرة، فإن العظم نفسه يألم ولا سيما إذا تصدع، ثم إن الأسنان والأضراس تحس بالألم والحار والبارد بأنفسها، لا بمجاورها من اللحم، ولهذا توسطت طائفة ثالثة وقالت: عظام الأسنان خاصة لها الإحساس بخلاف سائر العظام، وهؤلاء قد سلموا المسألة من مكان قريب، فإن الذي دل على إحساس الأسنان وحياتها، هو الدال على حياة سائر العظام والشبهة التي ذكروها لو صحت، لمنعت من إحساس الأسنان.

وأما حديث الطهارة والنجاسة، فذاك لأمر آخر وراء الحياة.

ومن نجَّسها بالموت سوَّى بينها وبين اللحم، ومن لم ينجسها - وهو الراجح في الدليل - فذاك لعدم علة التنجيس فيها، وإن الموت ليس بعلة النجاسة، وإنما هو دليل العلة وسببها، والعلة هي احتقان الفضلات في اللحم، والعظم بريء من ذلك، والدليل على هذا أن الشارع لم يحكم بنجاسة الحيوان النامي الذي لا نفس له سائلة، لعدم احتقان الفضلات فيه، فلأن لا يحكم بنجاسة العظم أولى وأحرى، فإن الرطوبات التي في الذباب والعقرب والخنفساء، أكثر من الرطوبات التي في العظم[١].

---

(١) السابق [٣٢٨-٣٢٩].

الحكمة في الأعضاء التي خلقت فيك آحادًا ومثنى وثلاث

ثم تأمل حكمته في الأعضاء التي خلقت فيك آحادًا، ومثنًى، وثلاث، ورباع، وما في ذلك من الحكم البالغة.

فالرأس واللسان والأنف والذكر خلق كل منها واحدًا فقط إذلا مصلحة في كونه أكثر من ذلك ألا ترى أنه لو أضيف إلى الرأس رأس آخر لأثقلا بدنه من غير حاجة إليه لأن جميع الحواس التي يحتاج إليها مجتمعة في رأس واحد.

ثم إن الإنسان كان ينقسم برأسه قسمين، فإن تكلم من أحدهما وسمع به وأبصر وشم وذاق بقي الآخر معطلًا لا أرب فيه، وإن تكلم وأبصر وسمع بهما معًا كلامًا واحدًا، وسمعًا واحدًا وبصرًا واحدًا كان الآخر فضله، لا فائدة فيه وإن اختلف إدراكهما اختلفت عليه أحواله وإدراكاته. وكذلك لو كان له لسانان في فم واحد، فإن تكلم بهما كلامًا واحدًا كان أحدهما ضائعًا وإن تكلم بأحدهما دون الآخر فكذلك، وإن تكلم بهما معًا كلامين مختلفين خلط على السامع ولم يدر بأي الكلامين يأخذ، وكذلك لو كان له هنوان[1]، وفهان لكان مع قبح الخلقة أحدهما فضلة لا منفعة فيه. وهذا بخلاف الأعضاء التي خلقت مثنى، كالعينين، والأذنين، والشفتين، واليدين، والرجلين، والساقين، والفخذين، والوركين، والثديين، فإن الحكمة فيها ظاهرة، والمصلحة بينه والجمال والزينة عليها بادية.

فلو كان الإنسان بعين واحدة لكان مشوه الخلقة ناقصها وكذلك الحاجبان.

وأما اليدان والرجلان والساقان والفخذان، فتعددهما ضروري للإنسان لا تتم مصلحته إلا بذلك، ألا ترى من قطعت إحدى يديه، أو رجليه كيف تبقى حاله

(١) هنوان: أي فرجان.

وعجزه، فلو أن النجار والخياط والحداد والخباز والبناء، وأصحاب الصنائع التي لا تتأتى إلا باليدين شلت يد أحدهما لتعطلت عليه صنعته، فاقتضت الحكمة أن أعطي من هذا الضرب من الجوارح والأعضاء اثنين اثنين، وكذلك أعطى شفتين لأنه لا تكمل مصلحته إلا بهما. وفيهما ضروب عديدة من المنافع ومن الكلام والذوق وغطاء الفم والجمال والزينة والقبلة وغير ذلك. وأما الأعضاء الثلاثة فهي جوانب أنفه وحيطانه وقد ذكرنا حكمة ذلك فيما تقدم.

وأما الأعضاء الرباعية، فالكعاب الأربعة التي هي مجمع القدمين والممسكة لهما وبهما قوة القدمين وحركتهما وفيهما منافع الساقين.

وكذلك أجفان العينين، فيها من الحكم والمنافع أنها غطاء للعينين ووقاية لهما وجمال وزينة، وغير ذلك من الحكم، فاقتضت الحكمة البالغة أن جعلت الأعضاء على ما هي عليه من العدد والشكل والهيئة، فلو زادت أو نقصت لكان نقصًا في الخلقة.

ولهذا يوجد في النوع الإنساني من زائد في الخلقة وناقص منها، ما يدل على حكمة الرب تعالى وأنه لو شاء لجعل خلقه كلهم هكذا وليعلم الكامل الخلقة تمام النعمة عليه وإنه خلق خلقًا سويًا معتدلًا لم يزد في خلقه ما لا يحتاج إليه، ولم ينقص منه ما يحتاج إليه كما يراه في غيره، فهو أجدر أن يزداد شكرًا وحمدًا لربه ويعلم أن ذلك ليس من صنع الطبيعة وإنما ذلك صنع الله الذي أتقن كل شيء خلقه وأنه يخلق ما يشاء [1].

عجائب العظام وعددها:

والذي أحصاه المشرحون من العظام في البدن مائتان وثمانية وأربعون عظمًا، سوى الصغار السمسميات التي أحكم بها مفاصل الأصابع والتي في الحنجرة، وقد أخبر النبي ﷺ أن الإنسان خلق من ثلاثمائة وستين مفصلًا، فإن كانت المفاصل هي

(١) «مفتاح دار السعادة» [٤٠٧-٤٠٨].

العظام فقد اعترف جالينوس وغيره بأن في البدن عظامًا صغارًا لم تدخل تحت ضبطهم وإحصائهم، وإن كان المراد بالمفاصل المواضع التي تنفصل بها الأعضاء بعضها عن بعض - كما قال الجوهري وغيره المفصل واحد مفاصل الأعضاء - فتلك أعم من العظام، فتأمله، وإن السلاميات المذكورة في الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه من حديث أبي ذر «**يصبح على كل سلامى من أحدكم صدقه، فكل تسبيحة صدقة، وكل تحميدة صدقة، وكل تهليلة صدقة، وكل تكبيرة صدقة**»[1] الحديث، فالسلامى العظم وجمعه: سلاميات، فهنا ثلاثة أمور: أعضاء، وعظام، ومفاصل، وجعل الله سبحانه العظام أصلب شيء في البدن، لتكون رأسًا وعمدة في البدن، إذ كانت الأعضاء كلها موضوعة على العظام، حتى القلب كما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى، وهي حاملة للأعضاء والحامل أقوى من المحمول، ولتكون وقاية وجُنة أيضًا، كالقحف، فإنه وقاية الدماغ وعظام الصدر وقاية له، وجعلت العظام كثيرة لفوائد ومنافع عديدة:

منها: الحركة، فإن الإنسان قد يحتاج إلى حركة بعض أجزائه دون بعض، وقد يحتاج إلى حركة جزء من عضو.

ومنها: أنه لو كان على عظم واحد لكان إذا أراد أن يتحرك تحرك بجملته.

ومنها: أنه كان يتعذر عليه الصنائع والحل والربط.

ومنها: أنه إذا أصابه آفة عمت جميع البدن، فجعلت العظام كثيرة لتكون متى نال بعضها آفة لم تسر إلى غيره، وقام غيره من العظام مقامه في تحصيل تلك المنفة.

ومنها: تعذر المنافع التي حصلت بسبب تعدد العظام، ولولا كثرتها وتعددها لفاتت تلك المنافع.

---

(١) رواه مسلم برقم [٧٢٠].

ومنها: أن من العظام ما يحتاج البدن إلى كبيره، ومنها ما يحتاج إلى صغيره، ومنها ما يحتاج إلى مستطيله، ومنها ما يحتاج إلى مجوفه، ومنها ما يحتاج إلى محنيه، ومنها ما يحتاج إلى مستقيمه، ولا يحصل ذلك إلا بتعدد العظام.

ومنها: بديع الصنع وحسن التأليف والتركيب، وغير ذلك من الفوائد.

ثم شد الخالق بعضها إلى بعض بالرباطات والأسر المحكم، ثم كساها لحمًا حفظًا لها ووقاية ثم كسى اللحم جلدًا صونًا له.

ولما كانت الفضلات تنقسم إلى لطيفة، وغليظة، جعل الله سبحانه للغليظة منها مجاري تنجذب فيها إلى أسفل، ويخرج منها خروجًا ظاهرًا للحس وأما اللطيفة فهي الفضلات البخارية، ولما كان من شأنها أن تصعد إلى فوق وتخرج عن البدن بالتحليل، جعل في العظام العليا منها منافذ، يتحلل منها البخار المتصاعد، فلم تكن تلك المنافذ محسوسة؛ لئلا يضعف صوان الدماغ- وهو القحف- بوصول الأجسام المؤذية إليه، فجعل الدماغ مركبة من عظام كثيرة، ووصل بعضها ببعض بوصل يقال لها الشئون ومنه قولهم: فلان لم تجمع شئون رأسه.

ويشتمل الرأس بجملة أجزائه على تسعة وخمسين عظمًا، وجعل القحف مستديرًا تامًا في مقدمه ومؤخره وجانبيه، بمنزلة غطاء القدر وعظامه ستة، وهي: عظم اليافوخ، وعظم الجهة، وعظم مؤخر الرأس، والعظمان اللذان فيهما ثقبا السمع، وفي كل واحد من الصدغين عظمان مصمتان.

وعظام اللحى الأعلى أربعة عشر عظمًا: ستة منها في محاجر العينين، واثنان للأنف، واثنان تحت الأنف، وهما المثقوبان إلى الفم، واثنان في الوجنتين، واثنان تحت الشفة العليا.

وأما العظم الشبيه بالوتد، فهو واحد وهو كالقاعدة للرأس.

وعظام اللحى الأسفل اثنان: وهما متصلان في وسط الذقن، وبينهما بنيان ويتصلان من فوق باللحى الأعلى اتصالًا مفصليًا.

والأسنان اثنان وثلاثون، في كل لحى ستة عشر: أربع ثنيات، وتليها الرباعيات، وتليها النابان، ويليهما الأضراس: خمسة من هنا وخمسة من هنا، والنواجذ أول الأضراس، وهما ناجذان في كل ناحية ناجذ، وربما نقصت النواجذ في بعض الأفراد، وكان في كل جانب أربعة أضراس.

وقد سلم الله غذاء الإنسان إلى يده، فتأخذه، فتسلمه إلى شفتيه، فتسلمه الشفتان إلى الأنياب والثنايا، فتفصله ثم تسلمه إلى الأضراس، فتسلمه وتطحنه ثم تسلمه إلى اللسان والفم، فيعجنه ثم يسلمه إلى الحلقوم والمرئ، فيسلمه ويوصله إلى المعدة، فتطبخه وتنضجه وتصلحه كماينبغي، ثم تسلمه إلى الكبد، فيتسلمه منها ثم يرسل منه إلى كل عضو راتبه ومعلومه، ثم تصب قربة الصفراء في المرارة السوداء في الطحال، والثفل يخرجه عنها كما تقدم بيانه[1].

تأملات رائعة في حكمة الخلق

من جعل في الحلق منفذين:

أحدهما: للصوت والنفس الواصل إلى الرئة، والآخر للطعام والشراب وهو المريء الواصل إلى المعدة وجعل بينهما حاجزًا يمنع عبور أحدهما في طريق الآخر، فلو وصل الطعام من منفذ النفس إلى الرئة لأهلك الحيوان، ومن جعل الرئة مروحة للقلب تروح عليه لا تني ولا تفتر لكيلا تنحصر الحرارة فيه فيهلك.

ومن جعل المنافذ لفضلات الغذاء وجعل لها أشراجًا تقبضها؛ لكيلا تجرى جريًا دائمًا، فتفسد على الإنسان عيشه ويمنع الناس من مجالسة بعضهم بعضًا؟!

---

(١) «التبيان في أقسام القرآن» [٣٢٩-٣٣٢].

ومن جعل المعدة كأشد ما يكون من العصب لأنها هيئت لطبخ الأطعمة وإنضاجها، فلو كانت لحمًا غضًا لا نطبخت هي ونضجت، فجعلت كالعصب الشديد لتقوى على الطبخ والإنضاج ولا تنهكها النار التي تحتها؟!

من جعل الكبد رقيقة ناعمة لأنها هيئت لقبول الصفو اللطيف من الغذاء والهضم، وعمل هو ألطف من عمل المعدة. ومن حصن المخ اللطيف الرقيق في أنابيب صلبة من العظام ليحفظها ويصونها، فلا تفسد ولا تذوب.

من جعل الدم السيال محبوسًا محصورًا في العروق بمنزلة الماء في الوعاء ليضبط، فلا يجري؟!

من جعل الأظفار على أطراف الأصابع وقايَة لها وصيانَة من الأعمال والصناعات؟!

من جعل داخل الأذن مستويًا كهيئة الكوكب ليطرد فيه الصوت حتى ينتهي إلى السمع الداخل وقد انكسرت حدة الهواء، فلا ينكؤه وليتعذر على الهواء النفوذ إليه قبل أن يمسك وليمسك ما عساه أن يغشاها من القذى والوسخ ولغير ذلك من الحكم؟

من جعل على الفخذين والوركين من اللحم أكثر مما على سائر الأعضاء ليقيها من الأرض، فلا تألم عظامها من كثرة الجلوس، كما يألم من قد نحل جسمه وقل لحمه من طول الجلوس حيث لم يحل بينه وبين الأرض حائل؟!

من جعل ماء العينين ملحًا يحفظها من الذوبان، وماء الأذن مرًا يحفظها من الذباب والهوام والبعوض، وماء الفم عذبًا يدرك به طعوم الأشياء، فلا يخالطها طعم غيرها؟

من جعل باب الخلاء في الإنسان في أستر موضع منه، كما أن البناء الحكيم يجعل موضع التخلي في أستر موضع في الدار، وهكذا منفذ الخلاء من الإنسان في أستر موضع ليس بارزًا من خلفه ولا ناشزًا بين يديه، بل مغيب في موضع غامض من البدن يلتقى

عليه الفخذان بما عليهما من اللحم، متواريًا فإذا جاء وقت الحاجة وجلس الإنسان لها برز ذلك المخرج للأرض؟

من جعل الأسنان حدادًا لقطع الطعام وتفصيله والأضراس عراضًا لرضه وطحنه؟!

من سلب الإحساس الحيواني الشعور والأظفار التي في الآدمي لأنها قد تطول وتمتد وتدعو الحاجة إلى أخذها وتخفيفها، فلو أعطاها الحس لآلمته وشق عليه أخذ ما شاء منها، ولو كانت تحس لوقع الإنسان منها في إحدى البليتين إما تركها حتى تطول وتفحش وتثقل عليه، وإما مقاساة الألم والوجع عند أخذها.

من جعل باطن الكف غير قابل لإنبات الشعر لأنه لو أشعر لتعذر على الإنسان صحة اللمس، ولشق عليه كثير من الأعمال التي تباشر بالكف، ولهذه الحكمة لم يكن هن[1] الرجل قابلًا لإنباته لأنه يمنعه من الجماع.

ولما كانت المادة تقتضي إنباته هناك نبت حول هن الرجل والمرأة ولهذه الحكمة سلب عن الشفتين، وكذا باطن الفم، وكذا أيضًا القدم أخمصها وظاهرها لأنها تلاقي التراب، والوسخ، والطين، والشوك، فلو كان هناك شعر لآذى الإنسان جدًا وحمل من الأرض كل وقت ما يثقل الإنسان. وليس هذا للإنسان وحده، بل ترى البهائم قد جللها الشعر كلها وأخليت هذه المواضع منه لهذه الحكمة، أفلا ترى الصنعة الإلهية كيف سلبت[2] وجوه الخطأ والمضرة وجاءت بكل صواب وكل منفعة وكل مصلحة؟

ولما اجتهد الطاعنون في الحكمة العائبون للخلقة، فيما يطعنون به عابوا الشعور تحت الآباط وشعر العانة، وشعر باطن الأنف، وشعر الركبتين، وقالوا أي حكمة فيها وأي فائدة.

---

(١) أي: ذكره.

(٢) أي: منعت.

وهذا من فرط جهلهم وسخافة عقولهم، فإن الحكمة لا يجب أن تكون بأسرها معلومة للبشر ولا أكثرها، بل لا نسبة لما علموه إلى ما جهلوه منها، فلو قيست علوم الخلائق كلهم بوجوه حكمة الله تعالى في خلقه وأمره إلى ما خفي عنهم منها كانت كنقرة عصفور في البحر، وحسب الفطن اللبيب أن يستدل بما عرف منها على ما لم يعرف ويعلم الحكمة فيما جهله منها مما علمه، بل أعظم وأدق.

وما مثل هؤلاء الحمقى النوكى[1] إلا كمثل رجل لا علم له بدقائق الصنائع، والعلوم من البناء والهندسة، والطب، بل والحياكة والخياطة، والنجارة، إذا رام الاعتراض بعقله الفاسد على أربابها في شيء من آلاتهم وصنائعهم وترتيب صناعتهم، فخفيت عليه، فجعل كل ما خفي عليه منها شيء قال: هذا لا فائدة فيه وأي حكمة تقتضيه هذا مع أن أرباب الصنائع بشر مثله يمكنه أن يشاركهم في صنائعهم ويفوقهم فيها. الظن بمن بهرت حكمته العقول، الذي لا يشاركه مشارك في حكمته، كما لا يشاركه في خلقه، فلا شريك له بوجه، فمن ظن أن يكتال حكمته بمكيال عقله أو يجعل عقله عيارًا عليها، فما أدركه أقرَّ به وما لم يدركه نفاه، فهو من أجهل الجاهلين ولله في كل ما خفي على الناس وجه الحكمة فيه حكم عديدة لا تدفع ولا تنكر.

فاعلم الآن أن تحت منابت هذه الشعور من الحرارة، والرطوبة، ما اقتضت الطبيعة إخراج هذه الشعور عليها ألا ترى أن العشب ينبت في مستنقع المياه بعد نضوب الماء عنها، لما خصت به من الرطوبة؟! ولهذا كانت هذه المواضع من أرطب مواضع البدن وهي أقبل لنبات الشعر، وأهيأ، فدفعت الطبيعة تلك الفضلات، والرطوبات إلى خارج فصارت شعرًا ولو حبست في داخل البدن لأضرته، وآذت باطنه، فخروجها عين مصلحة الحيوان واحتباسها إنما يكون لنقص وآفة فيه، وهذا كخروج دم الحيض من المرأة، فإنه عين مصلحتها وكمالها، ولهذا يكون احتباسه لفساد في الطبيعة ونقص فيها.

---

(١) أيضًا بمعني: الحمقى.

ألا ترى أن من احتبس عنه شعر الرأس، واللحية، بعد إبانه كيف تراه ناقص الطبيعة، ناقص الخلقة ضعيف التركيب، فإذا شاهدت ذلك في الشعر الذي عرفت بعض حكمته، فمالك لا تعتبره في الشعر الذي خفيت عليك حكمته.

ومن جعل الريق يجري دائمًا إلى الفم لا ينقطع عنه ليبل الحلق، واللهوات، ويسهل الكلام، ويسيغ الطعام؟!

قال «**بقراط**»: الرطوبة في الفم مطية الغذاء، فتأمل حالك عندما يجف ريقك بعض الجفاف ويقل ينبوع هذه العين الذي لا يستغنى عنه[1].

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ٤١٤-٤١٧) [٤٤١-٤١٧]